النموذج الثالث

نموذج الالتباس أو الخلط بين الطعن والإنصاف

وفيه يجتمع جانب هادف يسير على طريق التفاهم، وجانب غامض وخفي ذو أهداف مسيئة، ومساعي مذمومة واستعلاء على الطرف الإسلامي، من حيث إنه يدور حول المساعي المبذولة من الأطراف المعنية بالعمل على التقارب والفهم المشترك، لما فيه المصلحة والاتفاق على قواسم مشتركة، ومخاطبة القضايا الشائكة والتصدي لما يؤدي إلى القطعية ويثير العداوة، ويعوق السلام والتعايش، ويشيع أجواء التوتر والكراهية.

على هذا الجانب نلمس جهودا متنامية في هذا الاتجاه، وهي جهود جديرة بالتشجيع بإفساح المجال أمامها، وتفعيل ما يصدر عنها مهما كان قليلا، فهو على قلته، يعمل على تصحيح الصورة الغلط، ويزيل الجهالة ويغرس الفهم الصحيح، ويحسن في العلاقات، وينفي أجواء التوتر، ويمضي قدما نحو مزيد من التعايش والسلام.

١ - منتدى إسلامي كاثوليكي يدعو إلى حرية العقيدة والالتزام المشترك بإقامة عالم أكثر عدلا.

فقد انعقد المنتدى الكاثوليكي الإسلامي في الفاتيكان، حول موضوع محبة الرب ومحبة الآخر، وهو الأول بين أتباع الدينين على هذا

الطريق، وضم ٥٨ مندوبا جاءوا من بلدان مختلفة فى أرجاء العالم، وقد اعتبره البابا بنديكت السادس عشر بأنه: خطوة إضافية على طريق فهم أفضل بين المسلمين والمسيحيين.[1]

وقد ناقش المنتدى مشكلة الاضطهاد والعنف والإرهاب، ولا سيما ذلك الذى يرتكب باسم الدين. كما تطرق إلى بعض المسائل الدينية والأخلاقية والاجتماعية.

وفى سياق الحرص على التنبيه على بعض المسائل التى تشكل حساسية خاصة تؤرق العلاقات بين أتباع الأديان، شدد البابا على احترام حرية المعتقد للجميع، وأينما كان من منطلق أن هناك بعض الأقليات المسيحية تتعرض لأعمال عنف أو تدفع للنزوح فى الكثير من الدول التى تكون فيها الغالبية مسلمة.

فيما قال الأستاذ الجامعى الأمريكى الكاثوليكى الفرنسى جوزيف مايلا: لقد بحثنا فى العبارات التى تثير الاستياء مثل كره الإسلام.

فى الوقت الذى حذر فيه الأستاذ الجامعى الأمريكى المسلم سيد نصر من تبشير عدائى يشن باسم الحرية.

وقد أسفر المنتدى عن إعلان مشترك دعا إلى: احترام الفرد وخياراته على صعيد المعتقد والدين، وحق الأفراد والمجموعات فى ممارسة دينهم علنا ومنفردين.

---

(1) Http: //www.egypty.com/news-details.aspx?news=5658.

كما دعا المسئولون الدينيون فى إعلانهم: كل المؤمنين إلى العمل على قيام نظام مالى أخلاقى تأخذ الضوابط التى تحكمه فى الاعتبار وضع الفقراء والمحرومين والدول المدينة.

وأدان الإعلان الاضطهاد والعنف والإرهاب الذى يرتكب باسم الدين.

يأتى هذا المنتدى ليزيل الآثار العالقة من جراء خطاب البابا فى إحدى الجامعات الألمانية عام ٢٠٠٦م، والذى ربط فيه بين الإسلام والعنف، ويعمل على مزيد من الفهم، وإقامة جسور مشتركة من أجل إقامة عالم أفضل بين المسلمين والمسيحين الكاثوليك، وهم الطائفة الأكثر عددا عما عداها من الطوائف المسيحية الأخرى.

لكن واقع الإعلان المشترك يكشف عن رغبة حثيثة تجاه تغيير مواقف عقائدية فى الدين الإسلامى تحت ستار حرية المعتقد، وحق الاختيار، وهو إن كان صحيحا فى مبتدى العقيدة، واعتناق الدين الذى يؤمن به، إلا أنه لا يستقيم بعد الإيمان بالدين والانخراط فى تعاليمه وبين أصحابه، لما فيه من التلاعب بالإسلام وبث الفتنة فى مجتمع المسلمين، ويلقى بظلال من الشك حول قدسية الدين والضمير الإيمانى، ويورث الخيانة للمبادئ والقيم، والانفلات من ربقة الإسلام ونظام المجتمع، والتشكيك فى حقائق الدين وكونه دينا إلهيا.

وقد حذر الإسلام من هذا الصنيع بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٢].

وخطورة قبول ما دعا إليه إعلان المنتدى فى هذا الصدد أنه يبغى تقنين التبشير ضد الإسلام، وغزو الإسلام فى عقر داره وتحريض المؤمنين بالإسلام على الانخلاع عن دينهم والانقلاب عليه تحت ستار حرية المعتقد والاختيار.

والأجدر فى هذا السياق دعوة المؤمنين بالأديان إلى الحفاظ على عقائدهم والتمكين لهم فى ممارسة شعائر دينهم، وحماية حقهم فى ذلك.

٢ - محادثات بين السعودية والفاتيكان حول بناء كنائس

تنطلق فى الآونة الراهنة مباحثات بين السعودية والفاتيكان بغرض بناء أول كنيسة فى بلد مهد الإسلام، وقال الأسقف بول منجد الهاشم وهو ممثل البابا بنديكت السادس عشر فى منطقة الشرق الأوسط: أن المباحثات انطلقت قبل أسابيع قليلة.

ويذكر أنه لا توجد علاقات دبلوماسية رسيمة بين السعودية والفاتيكان.

وتجدر الإشارة إلى أنه تم افتتاح أول كنيسة كاثوليكية فى الدوحة العاصمة القطرية، وذلك خلال قداس دينى حضره نحو ١٥ ألف شخص، وحضر مراسم افتتاحه ممثل بابا الفاتيكان الأسقف بول الهاشم الذى قال: إنه يأمل فى إقامة كنيسة قريبا فى السعودية، التى يعيش فيها حوالى ١,٥مليون مسيحى لا يسمح لهم بممارسة طقوسهم

التعبدية علانية. وهم يعيشون فى السعودية والعديد منهم فنيون وعاملون بالمملكة[1].

ويؤسس الفاتيكان مطلبه بإقامة كنائس بالسعودية، على أساس أن المسلمين الموجودين فى أوربا أحرار فى ممارسة طقوسهم الدينية، الأمر الذى يجعل بناء الكنائس فى المملكة من باب المعاملة بالمثل وكمظهر من مظاهر احترام الديانة المسيحية والمسيحيين، وأن إقامة الكنائس فى المملكة هو شرط لإقامة علاقات دبلوماسية.

وفى العادة تتكرر الانتقادات والشكاوى من الممارسات الدينية فى السعودية وغيرها من الدول الإسلامية، وأنها ضد الحرية الدينية فيما تتخذه من إجراءات صارمة ضد التجمعات المسيحية، وبالنسبة للسعودية فإن ممارسة العبادة وإظهار الرموز الدينية مثل الصلبان غير مسموح به.

وحقيق فى هذا السياق التذكير بأن ثمة حديثًا نبويا حول ممارسة الشعائر الدينية فى قول الرسول ﷺ [لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب].

وينبغى القول أن السعودية بصفة خاصة مكانة متفردة مردها إلى كونها بلد الحرمين الشريفين، وأنها قبلة المسلمين ومهد الإسلام، وأن الرحال تشد إلى موضعين فيها المسجد الحرام والمسجد النبوى، مما يضفى على أرضها قدسية حقة فى هذا الخصوص.

---

(1) Http: //news,bbc.com.uk/go/pr.fr-h/arabic/middle_east_news.

ولئن كانت الفاتيكان تتمثل ببناء المساجد فى أوربا للمسلمين هناك، بما يستتبعه من بناء الكنائس فى السعودية فى نطاق التبادلية، فهذا قد يجد الرد عليه فى أن الفاتيكان لا تقبل ببناء مسجد للمسلمين على أرضها، فى الوقت الذى من المعلوم للكافة بناء كنائس المسيحيين فى الدول العربية والإسلامية، وأنهم يمكنون من أداء شعائر دينهم فى هذه البلدان، وهو ما يؤكد على الحرية الدينية فيها وحق المسيحيين وغيرهم فى إقامة شعائر دينهم داخل الأوطان الإسلامية، وحماية حقهم فى هذا الخصوص.

٣ - مهاجمة مسلسل يقدم صورة مشرقة عن المسلمين

عرض مسلسل تليفزيونى صورة مضيئة عن المسلمين، إذ يظهر تضامن المسلمين مع الشعب الأمريكى فى محاربة الإرهاب. وأكدت شركة فوكس المنتجة للمسلسل أنه – أى المسلسل – يحاول أن يظهر حقيقة المسلمين وأنهم ليسوا جميعا إرهابيين.

كما جاء على لسان بطل المسلسل كريفر ثترلند قوله: "بينما الإرهاب واضح وجلى كأحد أخطر التحديات التى تواجه أمريكا والعالم، فمن الضرورى إدراك أن المسلمين الأمريكيين يقفون بقوة بجوار إخوانهم فى شجب وإدانة كل أشكال الإرهاب"[1].

هذا الجانب من المسلسل يرسم صورة حقيقية تكشف عن جوهر الإسلام فى دعوته إلى الأمن والسكينة والتعايش فى سلام مع المخالفين،

(1) Http: //www.alarabia.net/save_print.php=18nont_id=10439.

ونبذه للعنف والإرهاب وترويع الآمنين. وهذا ينطبق على المسلمين الذين عليهم أن يلتزموا هذا النهج فى تعاملهم مع الآخر، وهو المسلك الذى اتبعه المسلمون عبر عصور الإسلام، وفى ظلال الفهم لطبيعة الإسلام، ومنهجه فى علاقته مع الغير.

ومع هذا النظر الصحيح لصورة المسلمين فى الغرب وفى أمريكا فإن بعض الكتاب مثل ديبى سيشلسل هاجمت المسلسل ووصفته بأنه من أكثر العروض إثارة من حيث الحركة والمغامرة والسخرية وقالت: «إن كل الإرهابيين لهم علاقة بالإسلام، واعتبرت أن شركة فوكس المنتجة للمسلسل قد تورطت فى إنتاجه، وأن ذلك يعد انتهاكا للمحظور وطالبت القائمين على الشركة بالندم على ارتكاب هذه الخطيئة».

ومنشأ الغرابة فى هذا النقد والهجوم أنه غير مبرر ولا محل له، فإن المسلمين الأمريكان يدركون مصلحة البلاد التى يعيشون فيها، وحريصون على الحفاظ على الأمن والأمان فيها، ولا يقدمون على ما يخل بهذا الأمن أو يعكر صفوه. ولا يخل بهذه الصورة أن توجد بعض الجماعات من خوارج المسلمين ممن اتخذوا منهج العنف سبيلا لرفض الأوضاع الخاطئة والمعايير المزدوجة ضد الإسلام والمسلمين، على سند من أن هناك سبلا أخرى للتعبير عن السخط والاحتجاج وتغيير الأوضاع بالطرق المشروعة دون تشويه الإسلام واتخاذ المتربصين به ذلك ذريعة للتطاول عليه والإساءة إليه، واستنفاد أعداء الإسلام لتأييد مدعاهم بأن الإسلام دين الكراهية ورفض الآخر.

ويبقى دوما الإعلان الإسـلامى الذى يكرس نـداء التعايش والتفاهم الوارد فـى قوله تعالـى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [سـورة الحجرات: الآية ١٣]. للقول بإن الإسلام دين ينبذ الإرهاب وأنه دين أمن وسلام.

* * *

فتاوى الفضائيات بين التهوين والتهويل

انضـم الافتاء فـى الفضائيات إلى قائمة الأمـراض التى تعانى منها الأمة وتوهن الإسـلام، وتضعف عافيته، فقد شوهت سماحته، وروجت للأباطيـل من حولـه، فى وقت صوبت فيه السـهام إلى هذا الدين من الأعداء المجتمعين عليه هنا وهناك، يضمرون له السـوء والنقيصة، فهم يعلمـون أن الإسـلام هو مصدر قـوة الأمة، وباعـث حيويتها، ومفجر الطاقات فيها، وأسـاس بقائها عزيزة مستقلة فى شخصيتها لا تخضع للإدارة الإلهية، ولا تستقيم مسيراتها إلا بالاعتصام بدين الإسلام وتنفيذ قوانينه وشريعته كشرط لازم لنهضتها وعلو مكانتها.

وكان مـن مقتضى هذه الحقيقة الناصعـة أن تتوافر عقول الأمة نحو إبراز جوهر الدين الإسلامى، واستلهام مقاصده، وبعث حضارته المشيدة علـى حقائـق العلم والدين، وأن تصاغ حياة المسـلم وفـق هذه الرؤية الخلاقة للإسلام المستمدة من فقه النصوص، ومعطيات الواقع فى أبعاده الكلية والجزئية التى استوعبت الحياة على اتساعها، وقادت الأمم إلى رشـدها وهدت البشر إلى أقوم الطرق وأحسنها: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩].

وكان جديـرًا أن يقوم بهذه المهمة أصحاب الرأى والعقول الراجحة ورائدهم فى هذا المسـلك، مسيرة سـلفهم الصالح الذى يتقن أن الفتوى

توقيـــع عن رب العالمين، وبلاغ عن ســـنة رســـوله الكريم وأن الفقه هو الرخصـــة مـــن ثقـــة، وأن الإفتاء هو ملكـــة لا يقتدر عليهـــا إلا من حاز أصول العلم، وتمكن من ناصية الفهم العميق لطرق اســـتمداد الأحكام من النصوص فى القرآن والســـنة، وأن يكون للمفتى كما يقول ابن القيم[1]: «علم وحلم ووقار وسكينة، وأن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته، لديه الكفاية، بصيرًا بأحوال الناس، وأن تكون له نية بأن يريد بها وجه الله ورضاه والقرب منه وما عنده، وليس مريدا بها وجه المخلوق ورجاء منفعته، وما يناله منه تخويفًا وطمعًا، فهذه النية هى رأس الأمر وعموده وأساســـه الذى يبنى عليـــه، فإن لم يكن عنده هـــذه النية لم يكن عليه نـــور ولا على كلامه نور، تجد ذلك فى رجلين يفتى كل منهما بالفتوى الواحـــدة وبينهما فى الفضل والثواب أعظم مما بين المشـــرق والمغرب، هذا يفتى لتكون كلمة الله هى العليا ودينه هو الظاهر ورسوله هو المطاع، وذاك يفتى ليكون قوله هو المسموع وهو المشار إليه، وجاهه هو القائم، سواء وافق الكتاب والسنة أو خالفهما».

هذا تصوير لواقع تشـــهد عليه فضائيات هذا العصر، فقد انبرى نفر من أدعيـــاء العلم، للإعلام بحكم الله فى أمور ابتدعوها، وآراء زوروها، وغايات قدروها تحقيقًا لمآرب شخصية، وحاجات نفعية، وما ظنوا أنهم بصنيعهم المعوجّ ذلك قد أساءوا إلى صحيح الدين، وانحرفوا عن الصراط القويم، وخلطوا الحلال بالحرام والســـنة بالبدعة والصحيح بالمكذوب، واقترفـــوا الذنب العظيـــم، فقد تقوّلوا على الله بغير علـــم، وانزلقوا إلى

---

(١) أعلام الموقعين ج ٤، ص ١٩٩.

المعاصي، وتورطوا في الحرام وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النحل: الآية ١١٦].

لقد أحدثت هذه الفتاوى في الأمة صدعا كبيرًا، بسبب المسلك الخاطئ الذي اتبعوه وبما روجوا له من أحكام متضاربة، وأقوال متعارضة، أحدثت حيرة وبلبلة بين العامة، وبسطاء الناس، بل وصيَّرت الشريعة المستقيمة هوىً متبعًا نتيجة نظرة ظلامية ضيقة الأفق جعلت حياة الناس كئيبة معتمة لا ترى فيها شعاعا من نور، بتشديدهم على الناس، وجمودهم على نصوص لم يتعقلوا معناها، وتفسيرات لم يفقهوا مرجعها ووقعوا في آفة التنطع: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٤]. حتى لقد صيروا هذا الدين السمح الرحيم بالخلق عقبة كؤودا، فقد حصروه في رسوم وطقوس يقف حجر عثرة في طريق التدين السليم، والحياة السوية التي تجعل حياة المسلم للدين والدنيا، لله والوطن، وللمؤمنين وغير المؤمنين، وأقاموا خصومة زائفة بين الإسلام والعصر، والدين والتقدم، والتعايش مع الآخر، والإسلام من كل ذلك براء.

لقد أشاعت هذه النوعية من الفتاوى مفاهيم مغلوطة عن الإسلام وأظهرته كدين يدير ظهره للحضارة والمدنية والثقافة المستنيرة بسبب ما تتضمنه تلك الفتاوى من الخرافات والجهالة والتخبط والعجز والجمود، حتى يحسب الباحث عن الإسلام أن هذا الدين يستعصى على التطور

ويبعث فى النفس الجهامة والعبوس واليأس وما درى هؤلاء المتشددون أنهم يطعنون فى الإسلام من حيث لا يظنون، وأنهم كتيبة من المنفرين الذين يشوهون الإسلام ويصدون عنه الناس وأن مآلهم الويل والهلاك، بحسب ما أخبر به الرسول ﷺ : «هلك المتنطعون» - المتشددون - قالها ثلاثا. وقوله: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرًا أبقى، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه».

والغريب فى الأمر أن هؤلاء الناس قد نَصَّبوا أنفسهم أوصياء على الإسلام وقدموه للناس على أساس أنهم أنصاره المخلصين الذين يذودون عنه، ويصدون عنه الأباطيل، وهم بهذا المسلك لهم الحق وكل الحق فى أن يحتكروا فهم الدين، ويتقولوا عليه ما شاء لهم القول، مع أن بضاعتهم مزجاة، ولا رسوخ لهم فى العلم، فهم لا حظ لهم من استحقاقات المفتى، فهو العارف بكتاب الله نصا واستنباطا، العالم بالسنة على مقتضى الاستقلال، البصير بمواقع الإجماع من أقوال العلماء السابقين، المتحلى بالقدرة على القياس، وإلحاق الشبيه بنظيره، ومحدثات الوقائع بنصوص الشرع وأصوله، والفقيه ذو الدراية بترتيب الأدلة، المتمسك بالورع والتقوى، وعلى الجملة فإن المفتى كما يقول إمام الحرمين[1]: «هو المتمكن من إدراك أحكام الوقائع على يسر من غير معاناة تعلم».

ولا تقف فوضى الفتاوى عبر الفضائيات على هذا الصنف من الناس، وإنما يؤازرهم ويعمق الاضطراب والخلل صنف آخر من المفرطين فى الدين الذين تعدوا حدوده، واستباحوا حرامه وضيعوا معالمه تحت

(١) غياث الأمم ص ٢٨٩.

مســميات براقة، وشعارات رنانة وســندهم على مدعاهم أنهم مجددون ومبدعون فــى الدين، وأن حاجات العصر ومقتضيــات الحداثة وأنماط الحياة الحديثة تحتم هذا التجديد، ليكون ما جَدَّ للناس من الحوادث، وما طرأ لهم من المســتجدات والمعضلات مما يندرج فى الدين، ويدور فى فلكه، ويلتف تحت عباءته، ولا حرج وفق هذا النظر، أن يســتحل المسلم الحرام، وأن يُؤَول النص على غير موضعه، وأن ينحرف بالثابت من الشــرع على غير مســاره، وأن تنطمس هوية المسلم، وتتميع أحكام الشــرع، وأن يتم اختراق حصونه، وأن تفكك قواعده وتتزلزل ثوابته فلا ضيــر فى هذا كلــه ما دام أنه يرضى غــروره ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣].

يمضــى أصحاب هذا النظر فى الفتيا المنفلتة وهم مفتونون بطريقتهم معجبون أشد الإعجاب بها، مع ما فيها من الاجتراء غير المسبوق على الإسلام الذى ينقض عروة الدين، فهم مولعون بما ينعتهم به بعض المتملقين والجاهلين بأنهم من المجددين والمبدعين الذين على أيديهم ينهض الدين وبرؤاهم المشوهة والممســوخة والمدلسة يكون التطور والحداثة واللحاق بركب العصر، ومن ثم فإنهم يتعجلون الخطى على طريق الضلالة والخسران.

ولو أنهم وعوا متطلبات الفتوى، من الفهم العميق، والتدبر الحصيف لســلكوا مسلك الأولين، فقد كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع فى الفتوى ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره، فإن رأى أنها قد تعينت عليه بذل اجتهاده فى معرفة حكمها من الكتاب والسنة

أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى[1].

وبدون ذلك فهم حريصون على دينهم قاصدين صالح أمتهم فقد كانوا يتهيبون الفتوى، وكانوا يضعون نصب أعينهم قول الرسول ﷺ: «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار».

فإذا اجتمعت الجرأة وفقر الفقه والعلم، فهى الطامة الكبرى، وهى من محدثات زمننا هذا كأن الرسول ﷺ يرقب هذا الزمان فى قوله: «يخرج فى آخر الزمان رجال»، وفى رواية: «قوم رءوس جهال يفتون الناس فيضلون ويضلون».

وفى ظل هذه الفوضى والانفلات فى أمر الفتوى، فينبغى أن تسند الفتوى إلى المتفقهين فى الدين، المتبصرين بالأدلة الشرعية النصية والعقلية، ممن توافر لديهم الدراية بظروف العصر، ذوو فطانة بأحوال الناس، وفقه الواقع وفقه المقاصد وكذا فقه الأولويات، بحسبانها المؤهلة لها والكفء بأبعادها، وأن يوضع جزاء على كل من تصدى لها من غير المؤهلين وذوى الكفاءة بها وهو ما قال به الحافظ البغدادى[2]: «ينبغى لإمام المسلمين أن يتصفح أحوال المفتين، فمن كان يصلح للفتوى أقره عليها، ومن لم يكن من أهلها منعه منها. وتقدم إليه بألا يتعرض لها وأوعده بالعقوبة إن لم ينته عنها». وإزاء الظروف الناشئة عن الممارسات الخاطئة فى الإفتاء المعاصر، فقد بات متعينا أن يوكل أمر الفتيا لأربابها من العلماء الثقات المخلصين، وأن تفرض عقوبة على المجترئين المضللين، لا يصح إلا هذا، ولا يستقيم شأن الإسلام بدون ذلك.

(١) كشاف القناع للبهوتى. ج ٦ ص٢٤٠.

(٢) كتاب الفقه والمتفقه، المجلد الثانى، ج ٧، ص ١٥٢ وما بعدها.

حرية الإعلام
بين
الالتزام والانفلات
رؤية إسلامية

الإعلام وصناعة الفكر

يعيش الإنســان المعاصر لنهايــة الألفية الثانية، ومســتهل الالفية الثالثة حالة من الدهشــه والترقب الدائم، بسبب ماتبثه وسائل الإعلام مــن تقنية مبهرة فى الخير والمعلومة ومتابعة٠ الأحداث وإثارة الغرائز، واغتيال الثقافات، وبرمجة التفكير، وغسيل الأدمغة، فتصتك أسنانه، وتتســع عيونــه، ويهتز وجدانــه، من فرط ما يصل إلى مســامعه، وما تبصره عينه، وما يطالعه ناظره، وهذا هو بالضبط ما قصده القائمون على هذه الشــبكات الإعلامية، فهم قد حددوا أهدافهم سلفا، وخططوا بدقة لبلوغها، وهيأوا المناخ المواتى لإحداث أثرها، وبذلك الصنيع يســهل علــى هذه الأدوات الجهنمية اختراق الحصــون المنيعة للعوالم الأخرى غير الأوربية، وزعزعة الهويات، والتشكيك فى القيم الروحية والدينية.

وقد بات إنسان عالمنا العربى والإسلامى أمام هذه الصناعة الإعلامية الضخمة ما بين مبهور بها، مفتون بأفانينها، أو رافض لها ساخط عليها، وهو فى الحالين فاقد التأثير، مسلوب الإرادة، منسحق تحت وطأة هذه التقنية الجبارة، مشتت الفكر، ما بين خصوصية ثقافية، وعولمة عصره، غارق فى حيرته لا يدرى كيف الســبيل إلى التوفيق بين الأيدلوجيتين تتجاذبــه الأطروحات المتباينة، منها التى تعتصم بدينها، وتستمســك بهويتهــا والأخرى التــى ترفع لواء العولمــة globalism ومواكبة العصر والمعاصرة وعدم الانكفاء على الذات، والجمود على الموروث، سواء على

مستوى الفكر أو على صعيد السلطة، أو عند العامة والدهماء. وهذا التشرزم فى بنيان الأمة هو بلا ريب أحد إفرازات تلك الأبواق الإعلامية الجبارة. قد طلعت علينا هذه الشبكات وتلك المؤسسات الإعلامية، بسيل من الأفكار باعتبارها القطب الفاعل، والقوة الضاربة، والمدينة المتصدرة فى عالم اليوم، والتى قدمت الديمقراطية وحقوق الإنسان، وثقافة السلام، وحقوق الأقليات وغيرها بحسبانها إنجازا غربيا خالصا، ومن نتاج لقاح العقول الغربية وحدها، وأحد مظاهر الحضارة الغربية، وآية على الإبداع الغربى فى النطاق السياسى والاجتماعى، فضلا عن المنجز الهائل فى المجال التطبيقى والتقنى، الذى انعقدت الريادة فيه للغرب بلا منازع.

ويبدو أنه قد وقر فى الذهنية الغربية، التعامل من خلال هذه المنجزات مع الآخر، وبخاصة العالم العربى والإسلامى، على أن العالم الغربى له الحق بل كل الحق فى أن يوظف هذه العناوين البراقة، والمخترعات المبتكرة لإعادة تشكيل العامل الآخر، وعالمنا العربى بالذات[1]. عامدة من وراء ذلك إلى تقويض الهوية، وخلخلة الذاتية المتفردة للأمة، وتحطيم المصدات التى تمثل الدرع الواقى ضد الهجمة على ثوابت الأمة، وصوالحها العليا.

وقد أحرزت وسائل الإعلام الغربية، بعض النجاحات فى هذا المسعى الذى تبذل من أجله كل غال ونفيس، لكى تقتلع كل مظهر، وتشكك فى كل رمز تلتف حوله الأمة ومن ثم تجتاح عالمنا العربى والإسلامى وتطويه فكريا وأيدلوجيا ومدنيا، وتبتلعه لقمة سائغة فلا يبقى له وجود ويضحى جثة هامدة لا تقدر على حراك.

(١) تسلط هذه الورقة الاهتمام على العالم العربى والإسلامى، نظرا لطبيعه الدراسة.

والغريب أن وسائل الإعلام فى صنيعها ذاك ترفع راية الحرية، والسماوات المفتوحة، والقرية الواحدة، وماتدرى أن الترويج لكل الأفكار والمفاهيم التى تسبح فى جنبات الكون، عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، إنما تحمى حرية الإنسان الغربى، وتدافع عن صوالحه، وتسخر الآخرين لحسابه، وتسحق أبناء عالمنا وتصادر حرياتهم، وتعصفت بحقوقهم. لا لشىء إلا إرضاء نزوات الإنسان الغربى، وتزويده بأكبر قدر من الرفاهية والمتعة والإثراء على حساب الغير.

الحرية فى الممارسة الإعلامية الغربية

إن الحرية منحة الهية وفطرة إنسانية، وصناعة قانونية، ينبغى أن تمارس بضوابط تمثل سياجا واقيا يحميها من الاشتطاط ويمنعها من التجاوز، بما يرشد مسيرتها، ويحفظ كرامة الإنسان، ويوزان بين الحريات جميعا، ويصون الحرمات. فمن المعلوم أن ممارسة الشخص لحريته ينبغى أن تنتهى عندما تبدأ حقوق الآخرين، فالفرد بذلك المسلك يكون قد التزم بحق الغير فى الحرية، ومن ثم تحمى كل الحريات وتنطلق الملكات نحو الإبداع الخلاق.

والحرية فى النظر الإسلامى هى حرية مسئولة منضبطة، يستوى فى ذلك أن تكون حرية للفرد أو للجماعة، على المستوى الخاص فى الشئون الفردية أو على المستوى العام فى الشئون المتعلقه بالأمة، أيا كان ممارسها الفرد لتحقيق رغباته وللتعبير عن ذاته، وإنجاز مصالحه، أو الدولة من خلال وسائلها الإعلامية من صحافة وإذاعة وتلفاز، ذلك

أن الحرية المشـــروعة تلتزم الصدق، وتسعى إلى المصلحة، وهاك طرفا مــن ضمانات الحريـــة فى إطارها الصحـــى الصحيح. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٩].

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [سورة الاسراء: الآية ٣٦].

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٣].

ويقول الرسول ﷺ لا ضرر ولا ضرار.

وروى عنه – صلوات الله عليه – المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

ومن هنا ترتكز الحرية فى الإســـلام، على الإلتزام بالصدق فى الخبر والتوعية والتثقيف، وتســـلك ســـبل الحكمة والإقناع الســـديد، والقول الرصين وبيان عاقبة الســـلوك الرشـــيد، ومناقشـــة المخالفين والتحاور معهم، بأحســـن الســـبل وفضل المسالك، وهذا ترســـيخ لثقافة التعايش والسلام مع الآخرين.

ثم إن الإســـلام يقدم النموذج القويم للمساءلة عن سلوكيات الفرد فى النطاق الشخصى والعام، فهو فى ذاته ينبغى أن يكون قدوة، وفى أدائه لواجبه يكون على دراية وتبصر وعلم بما يقوله، ويدعو الناس إليه، وهو مأمور بالإعلام عن القيم الإيمانية والدينية، بالطريق الصحيح الذى يشوق الناس إلى الإيمان بالله ، وهو فى كل ذلك مسئول فى كل أحواله، فلا

يستخدم قدراته العضوية والذهنية إلا فيما ينفع ويبنى وأن ينأى بأقواله وأفعاله عن أن يضر بالآخرين، أو يتعدى على حرماتهم أو يصادر حقوقهم.

وقد وعى الإسلام هذه الحقيقة منذ البدايات الأولى، إذ أنه بمقتضى نصوصه وغايته، رسالة إعلامية للإنسان تدعو إلى عقيدة التوحيد والمثل الأخلاقية، فكان لابد من الالتحام بالناس لبيان الحقائق الإسلامية، عن طريق النفاذ إلى قلوب وعقول الجماهير، وتبصرتهم بما فيه سعادتهم فى الدنيا، وخلاصهم فى الآخرة. ونزل القرآن ليكون منهجا مجسدا للعقيدة الربانية والحضارة الدينية، والمدنية الإنسانية وقانون التعامل وأخلاق المؤمن، لا بالقسر ولا الهدم أو التشويش، وإنما بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٨٣].

وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨].

وقد التزم صاحب الرسالة إلى أقصى حدود الإلتزام بالوسيلة والمنهج، وسار على نهجه الراشدون من بعده، فكان اتصالهم بالناس وتبليغهم الإسلام بالرفق واللين والهوادة، فى غير ضعف ولا استكبار، موقنين بأن الله قضى بالاختلاف فى الهوية والفكر والجنس واللون واللغة، فلكل فرد، ولكل جماعة أن تختار لنفسها، فى ظل بيان الإسلام للناس، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وكل شخص مسئول عن اختياره، لا يصادر فكره، ولا يعتدى على حرمته، ولا تهدم عقيدته، ولا تسلب حقوقه، ولا يحرم من ممارسة حريته فى ظل احترام القيم والمعتقدات السماوية. وهو ما نشهد مصادرته واحتواءه من جانب الإعلام الغربى.

فلسفة الخطاب الإعلامى الإسلامى

كان أكثر ما عنى به الإســلام فى دعوته الإنسانية، هو بناء الإنسان المســلم، المؤمن بربوبية الله، القائم على منهج الله فى الكون، المحقق للرســالة الإســلامية فى عمــاره الأرض، الذى يتعايش مــع الآخرين، ويتحاور معهــم للوصول إلى النفع العام، والاجتماع على كلمة ســواء، فى ظــل الاحتفاظ بالخصوصية والتنوع، والتعامــل بالأخلاق الفاضلة، التى تشــيع الأمن النفسى والاجتماعى بين بنى الإنسان، وتعلى من قيم التعاون والتفاهم الذى ينبغى أن يســود بيــن من تجمعهم وحدة الأصل الإنســانى. إعمــالا لقوله تعالــى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣].

وانطلاقا من هذه المظلة التى يستظل بظلها الناس جميعا على أساس من فلسفة الخطاب الإعلامى الإسلامى، كان الإعلام الإسلامى بمصطلح العصر، هو إعلام ينبنى على التعددية وقيم الإســلام الحضارية المعبرة عن مثل الخير والتعاطف والتعاون والتســاند والتســامح وهو الأمر الذى جعــل مــن خاصية الإعلام الأساســية أنه إعلام بنــاء لا هدام وعطاء لا سلب، وتحاور لا إذعان، ولم يكن يعتمد فلسفة فرض النموذج الواحد، وإلغاء الخصوصيات، كما هو الشــأن فى الإعلام الغربى المعاصر، ومن ثم كان الإعلام الإســلامى إعلام تأثير هــادف وليس إعلام إثارة ومادية نفعيــة وقولبة الآخرين، ومحو شــخصيتهم والنعى علــى ثقافتهم بأنها ثقافة عدوان وعنف وتخلف.

الحاجة إلى فلسفة إعلامية خلاقة

ونحن في هذا المضمار لا ندين الإعلام المعاصر من حيث هو إعلام، فلا جرم أنه ضرورة لازمة للتواصل الإنساني، وطاقة زاخرة لإشاعة الوعي والتثقيف، وتوجيه الفرد إلى وجوه من النفع لا تنكر، فهو يساعد على الاختيار، والانتفاع بما عند الآخرين، بجانب ما فيه من ترفيه وتسلية تخفف على الناس معاناتهم، اليومية والإفادة بما توصلوا إليه من تقدم وارتقاء في مجال التنظيمات والتقنيات في العلوم الإنسانية والتطبيقية.

على أن المعضلة الإعلامية العصرية تكمن في الوجوه المتعددة، والقناع التنكرى الذى يرتديه الإعلام المعاصر، فإن المتابع لفاعلياته يجد أنه يوظف الجانب الإيجابى فى بناء وإقامة صرح الكيان الحضارى للإنسان، جنبا إلى جنب الاستخدام السلبى حيث يقوم بهدم القيم الروحية واختزال الإنسان فى وثنية المال والبورصة بما يقترن بها من الابتزاز والانتهازية والأنا البغيضة، وتدمير الأخلاق وإنسانية الإنسان.

لقد كان المأمول بدلا من تعظيم الجانب السلبى الهدام للإعلام الغربى، أن يوظف إمكانياته الهائلة، وتقنياته المبهرة فى الارتقاء بالجوانب الروحية جنبا إلى جنب مع إبراز الحافز إلى التقدم وإحراز الثروة، وبلوغ معدلات أعلى للتنمية، وأن تستلهم فلسفة التعامل مع الإنسان عقلا ووجدانا وأن يكون معبرا أمينا عن المثل العليا، والضمير الإنسانى.

إن العالم يتطلع إلى نظام إعلامى يحقق طموحات وآمال الشعوب النامية، ويعترف بخصوصياتها، ويفتح الباب أمام ثقافتها لتشكل فلسفة النظام الإعلامى الجديد، ويستشعر آلامها، ويعزز من دورها فى النطاق

الدولى. والمفارقة المثيرة للدهشـــة فى هذا الموضع، أن منظمة اليونسكو (منظمــة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة)، قد أرســت العديد من الإعلانات التى تسير فى هذا الاتجاه، منحى الحرية المسئولة والمهمومة لبعض معاناة عالمنا العربى والإسلامى فى هذا الخصوص.

ومن ذلك الإعلان العالمى[1] الصادر فى نوفمبر ١٩٧٨م بشأن المبادىء الأساسية الخاصة بإسهام وسائل الإعلام فى دعم السلام والتفاهم الدولى، وتعزيز حقوق الإنسان، ومكافحة العنصرية، والتحريض على الحرب.

ومــن قبل أصدر المؤتمر العام لمنظمة اليونســكو قــرارا عام ١٩٥٦م بوجــوب إزالــة المعوقات فيمــا يتعلق بتنفيــذ تدفق الأنبــاء بحرية، وسياســات الاتصال لمساعدة البلدان النامية فى إنشاء وتدعيم أجهزتها الإعلاميــة بما يتفق مــع حاجاتها وتحريرها مــن الاعتماد على البلدان المتقدمة بالنسبة لنظم الاتصال والإعلام الخاصة بها.

وقــد خطت المنظمة خطوات إيجابية باســتخدام وســائل الاتصال للنهــوض بالتعليم وتقدم العلوم والثقافة، والــدور الذى يجب أن يلعبه الاتصال فى زيادة الوعى بالمشــكلات الرئيسية التى تواجه عالم اليوم.

كما أولت اليونسكو عنايتها بصيانة الذاتية الثقافية ضد الغزو الفكرى الأجنبــى ووقاية مقومات أصالتها من مخاطر التيارات الثقافية الأجنبية التى تشوه طبيعتها وتضر بمستقبل الأمة، وقد أصدرت المنظمة لهذا الغرض إعلانا عن مبادىء التعاون الثقافى الدولى فى نوفمبر ١٩٦٦م جاء فيه:

١ – لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامها والمحافظة عليها.

٢ – من حق كل شعب وواجبه أن ينمى ثقافته.

---

(١) د. جعفر عبد السلام، الإطار التشريعى للنشاط الإعلامى، ١٩٩٣م، ص ١١٦ وما بعدها.

٣ – تشكل جميع الثقافات بما فيها من تنوع وخصوبة، وبما بينها من تباين وتأثير متبادل جزءا من التراث الذى يشترك فى ملكيته البشر جميعا.

التوجهات المشبوهة للفكر الغربى تجاه الإسلام

لقد كان حريا بمخططى وصناع السياسات الإعلامية فى الغرب أن يحققوا متطلبات الإعلانات العالمية، النابعة من الضمير العالمى، والمعبرة عن الإرادة الأممية، لكن شتان ما بين المثال والواقع، فإن المفكرين الغربيين لا يفتأون أن يرددوا بعض المقولات التى تناقض التقارب والتواصل العالمى مثل مقولة Kebling كيبلينج الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا. ومقولة ما كسيم رودنسون: إن العالم المسيحى الغربى فهم العالم الإسلامى ضمنا كخطر قبل زمن طويل من البدء برؤيته كمشكلة حقيقية.

ويعترف بعض المفكرين الغربيين بالوصاية الإعلامية الغربية على العقل العربى المسلم، فيقول برنارد لويس: لقد خلق تأثير الغرب فى أرض العرب مشاكل حقيقية، وذلك باقتلاعهم من قواعدهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وبإثارته لمركب النقص الثقافى فيهم.

وقد وصل هذا الاتجاه أمدا بعيدا، بنظرية صدام الحضارات Clash of civilization للكاتب الأمريكى صمويل هانتنجتون[1]، وتصويره الإسلام كمكمن للخطورة على الحضارة الأمريكية الغربية، حيث يعتبر الدين أكثر من الاثنيه فى إيجاد التفرقة الحادة بين الناس، ويعتقد أن التفاعل بين الإسلام والغرب سيكون من خلال التصادم الحضارى. وهو منطق

(1) The clash of civilization samuel p. Huntington, pp. 27,32 Aforeign Affairs Reader.

يؤصل ردة حضارية، ويعكس فكرا مغلوطا، يزكى الصراعات، ويثير الإحن والعداوات، وينسف الجهود العالمية فى التفاهم والتعاون بما يتضمنه من تخصيم الحضارات والثقافات الأخرى لمجرد إنها لا تنضوى تحت لواء الحضارة الغربية ولا تخرج من عباءتها، وتقدم للعالم رؤية وفكرا مغايرا لتلك التى تفردها الثقافة الغربية على العالم باسم العولمة.

ومثل هذا الموقف، يكشف عن زيف الشعارات التى يتشدق بها الغرب عن السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان، وقد يؤكد هذا المنحى ما ذكره فواز جرجس فى كتابه أمريكا والإسلام السياسى، صراع حضارات أم صراع مصالح، طبعه ١٩٩٨م، بقوله: لا يزال الإسلام فى نظر كثير من الأمريكيين ثقافة عدائية وخطرا على مصالحهم وقيمهم الثقافية وتتجذر معظم آراء الأمريكيين عن المسلمين إلى حد ما فى الأصول الدينية للولايات المتحدة، ولربما تعزى هذه الآراء أيضا إلى نزاع تاريخى بين المسيحيين والمسلمين، أى إلى مجابهة تنتقل عبر الأجيال بواسطة الآثار الأوربية وبمأثورات شعبية، ووسائل الإعلام الجماهيرية واللغة الأكاديمية المرعية.

إن خطورة هذه التوجهات المنحازة، أنها تعكس صورة ذهنية مغلوطة، وواقعا إعلاميا غربيا جاهلا بالشخصية المسلمة، ينظر إلى المسلم نظرة جاهلية وإلى العالم الإسلامى كبؤرة للإرهاب والقسوة والبداوة وامتهان النساء.

ولقد وصل الأمر لدرجة اعتبار الغرب أن الثورة الإيرانية. ما هى إلا مجرد إحياء للقيم التقليدية العفنة، وأنها تتشابه تشابها أكثر من أن يكون سطحيا مع النازية الأوربية إلى هذا الحد بات الإسلام صورة كريهة ومظهرا

لقيــم بالية، تجاوزها الزمن، وأصبحت فى عداد الماضى البغيض الذى يحمل فكر التخلف والبداوة والرجعية الممقوت، بما يمثله من خطر على الحضارة والمدنية، لما يحتوى عليه من همجية وبربرية كتلك التى فجع بها هتلر النازى العالم، وكان عنوانا على حركة مضادة لمسيرة التاريخ.

وهكذا فإن أعين الغرب على الإسلام، حتى فى الدول التى لم يصل فيها الإســلام إلى السلطة بشكل مباشر، فإن الإسلام – فى رأى الغرب – يشــكل خطرا على الديمقراطية فى هذه الدول، بل إن الإسلام يشكل أحد عناصر تحدى العراق للغرب، حيث يجد الغرب صعوبة فى تخيل عالم أفضل بكثير من عالمه أو تخيل مستقبل ليس ديمقراطيا ورأسماليا[1] وفق نموذجه الأثير، الذى يفرضه على الآخرين فرضا.

وبرغــم أهمية الصــورة الذهنية خاصــة إذا تكرر الإلحــاح عليها، وتحولــت إلى صورة منطبعــة Steryotype، فإن هذا لا يعفى الغرب من التحيز المســبق مع ســبق الإصرار والترصد ضد المســلمين، خاصة فى ظل انفجار المعلومــات information Explosion أو فيضان المعلومات information Flowed واتساع النشاط الإنسانى[2].

وتمضى هذه الصورة الخاطئة للتآمر على الإســلام ورسم صورة مرعبة لأتباعه، حتى تصاب الشــخصية المسلمة فى صميمها، وينهار كيانها،

(١) فــاروق أبــو زيد، الإعــلام الدولى وتطــور تكنولوجيــا الاتصال والمعلومــات، مجلة الدراســات الدبلوماســية العدد الثامن، ص ١٨٣، ١٩٩١م. مشــار إليه لدى د. مرعى مدكور، بحــث الاتجاهــات الحديثة فى بحوث الصورة الذهنية للعالم الإســلامى عند الغربيين، مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية، نوفمبر ١٩٩٨م.

(٢) فوكويامــا، نهاية التاريخ وخاتم البشــر، ط، ترجمة حســين أحمــد أمين، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢١٠، ٥٧.

ويذهب ريحها، ويغدو الإسلام شبحا فى كهف التاريخ، وعلى هذا المخطط يتحالف الغرب مع الصهيونية العالمية ودولتها إسرائيل وفقا لخطة مدروسة وبرامج معدة بإتقان وإبهار لإنجاز الغاية المرجوة. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٠].

إن تتابع فصول حلقات هذا المسلسل التآمرى، يوقن بأن توالى صور الإساءة والمهانة والتشويه ضد الإسلام، ومن يحمل جنسيته من المسلمين، ليس وليد الصدفة، ولا جاء عفو الخاطر، فهاهو ذا الكاتب الإنجليزى من أصل هندى سلمان رشدى فى روايته: آيات شيطانية Satanic verses والذى يسيىء إلى الرسول وزوجاته، أبلغ إساءة، فالإسلام عنده دين الخنوع وهو دين السلب والنهب، إذ الغاية تبرر الوسيلة، وهو دين البداوة والخرافات والفحش الداعر ومع ذلك وجد الحفاوة والتكريم بسبب إبداعه المزعوم، وتجنيد بريطانيا كلها لحمايته ضد ما أسمته بالتطرف الإسلامى، وتزييفها للوعى العالمى بأنها تحمى الإبداع الفكرى وحرية التعبير، لهو تأصيل مكين للحقد الدفين على الإسلام والمسلمين بعد أن تجاوز الكاتب كل الخطوط الحمراء، وطعن الإسلام – وهو جماع الأديان السماوية – بطعنه نجلاء فى القلب. وتكمل المأساة حلقاتها، بمنح الكاتب جائزة فرنسية بسبب إبداعه الأدبى عن هذه الرواية الشوهاء.

وتلمس على الجانب الآخر، الوجه الحقيقى لفرنسا كتعبير عن النموذج الغربى، فى محاكمتها لجارودى الفرنسى المسلم بسبب ما أسمته بالتشكيك فى أعداد اليهود الذين اكتووا بنار المحرقة النازية،

هــذا وذاك يحدث فى عاصمــة النور والجمال فى باريس الحســناء إن هذا وغيره كثير يجرى باســم المدنية والحضارة وسيادة القانون والضمير الإنسانى والاستنارة وهو ما يرسخ المعيار المزدوج، Double Standerd، فى التعامل الغربى تجاه الثقافة الإسلامية ومناهضة كل ما يمس الاسطورة اليهودية وهو جلى فى اعتبار آيات شــيطانية إبداعا يســتأهل المكافأة والكبت والتشــهير بالأساطير الإســرائيلية وإدانة صاحبها وهو المعيار المنحــاز بل المتعصب ضد كل ما هو إســلامى، والمحتضن لكل ما هو غربى والذى يجعل من المستســاغ مكافأة سلمان رشدى لتدميره الإسلام وإدانة جارودى للتشــكيك فى عدد اليهــود الذين راحوا ضحية محرقة النازية فأيهما أكثر قداسة وأوجب بالحماية، حرمة الإسلام والأديان أم المطلب اليهودى ومنشؤه اللوبى الصهيونى اليهودى.

لقــد عاصر ظهور النفط فى البلدان العربيــة، تزايد الاهتمام بتحليل الشــخصية العربية، ورصد ســلوكياتها، ومتابعة التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياســية التى صاحبت ظهور هذه القوة على الســاحة، ووضع الغرب نصب عينيه ابتزاز هذه الثروة بالتعرف إلى نمط الشخصية العربيــة، والتعامل معها من نقطة الضعف التى تمكن الغرب من الإفادة من ثرواتها بل إحكام السيطرة عليها برسم سياسة إعلامية تهيئ المناخ الملائم لسحقها، الأمر الذى نجح فيه هذا الإعلام إلى حد بعيد.

وقد ســخَّر الغرب كل طاقاته الإعلامية، لتحقيــر العرب، والتنفير من الإســلام، وكان المخطط حصار العربى والمســلم، وقد عقد من أجل ذلك المؤتمر الدولى الســادس حول الإعلام العربــى والأوربى، الإعلام

والحوار من أجل المستقبل Media Dialogue for the future، استضافته البحريــن فــى الفترة من ٢٢ : ٢٥ فبرايــر ١٩٩٨م وقد ضم هذا المؤتمر شخصيات غربية مهمة شاركت فى مؤتمرات متعددة عن الصورة الذهنية والحــوار العربى الأوربى، وكما يقول مرعــى مدكور[١] مما يجعل بعض الأفكار المطروحة تتمة لمؤتمرات ولقاءات ســابقة حول الموضوع نفسه، ومنها ندوة الصحافة الدولية المنعقدة فى لندن ١٩٧٩م.

وفــى المؤتمر يعترف البريطانى ســير ســيريل تاونســيند Sir syril Townsend، أن الصحافــة الغربيــة بمثابة مشــروعات تجارية تجرى وراء الأخبار الســيئة طبقــا للقاعدة الذهبية لدى أغلبهــا Bad news is good news، كمــا تجرى وراء المآســى والفضائــح والقصص الرخيصة وغير الأخلاقية أكثر من اهتمامها بقضايا التدهور البيئى والنمو السكانى والآثار النفسية لأى صراع.

ومــن هنا فقد أصبحــت الآراء المقبولــة Stereotyping، عن العرب والمســلمين ظاهرة فى الإعلام الغربى على الدوام، ولا تزال كما هى فى الوقت الحالى على الرغم من تقلص شيوع بعض التصورات السلبية مثل[٢]:

الوحشية الموجودة داخل الثياب الطويلة المتدلية.

شيوخ النفط الأغنياء السمان المسرفين.

أن العرب غير أكفاء وإرهابيون.

ومن البدهى تقديم الإســلام والشخصية العربية مقترنان ومتلازمان،

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥.

(2) Sir cyril Townsend, Media Coverage of Arabs in Europe, The sixth international conference Euro Arab Media, Dialogue For the future, Baahrain, fob. 1998 P 1 - 3.

فى الإعلام الغربى، فكلاهما وجهان لعملة واحدة، وإضفاء المهانة على العربى ينسحب بالضرورة فى التصور الغربى إلى الإسلام، بافتراض أن الإسلام هو الذى صنع الشخصية العربية، من الثيوقراطية Theocratic، والاستبداد السياسى، وتعدد الزوجات، وامتهان المرأة والتخلف، وضيق الأفق والتعصب....الخ هذه النعوت الموسومة فى الشخصية العربية.

وقد ترتب على ذلك وصم الإسلام بأنه الدين المجسد للعنف والقسوة، واستعداء الآخرين ورفض التعايش معهم، وشاع لدى الغرب مصطلح Islamophobia الخوف من الإسلام، بمفهوم أن هذا الدين لا يناسب وضعية العصر، ولا يواكب أحداثه ولا يصلح للمشاركة فى صنع حضارته، فهو دين رجعى، معطل لحركة التاريخ، وللمدنية الغربية المعاصرة.

الصورة المشوهة للإسلام

قد يحار الباحث المنصف فى تبرير قتامة صورة الإسلام لدى الغرب ووسائله الإعلامية، إذا أمعن فى بحث العلاقات القائمة بين الغرب والعرب ودول النفط العربى بوجه خاص، لما يجنيه الغرب من مكاسب وتحصده أمريكا بالإضافة إلى كم المصالح التى يحصل عليها لكن تبدو الصورة معكوسة وظالمة إذا تحمل الإسلام هذه الأوزار التى يوصف بها السلوك العربى، وهو منها براء، وكان الأولى والأصح، أن يحكم على الإسلام من خلال مبادئه وتعاليمه التى وردت فى أصح وثيقتين وهما القرآن والسنة، وفى التطبيق الكامل المستنير للإسلام من جانب العرب فى صدر الإسلام.

وأغلب الظن أن العرب فى توجهاتهم وفى سلوكياتهم والنظم القائمة لديهم وفلسفتهم الحياتية المعاصرة ليسوا هم النموذج الصحيح للإسلام

لا فى شئون الحكم والإدارة ولا فى النظم الاقتصادية والاجتماعية، وإنما وقفوا بالإسلام عند الشكل والقشور، وطرحوا الجوهر والمضمون، وأقاموا نظمهم وخططهم على أخلاط من التوجهات والفلسفات التى ليس بينها تناغم أو تحاكم إلى صحيح الإسلام وروحه الوثابة، وفكره المستنير، الذى يسير الأوضاع، ويقدم الحلول، ويملك زمام المبادرة، ويحقق النهضة والتنمية للفرد والجماعة فى كل المجالات، وليس فى ذلك النموذج الذى يعتمد التقليد والانكفاء على الذات، واختزال الإسلام فى العبادات والشعارات ونفيه فى أمور الاجتماع والاقتصاد والسياسة، أو فى تغييبه عن الساحة، واستيراد الفلسفات والنظم، وهو بمعزل عن الهيمنة عليها وتوجيهها، مع النص على الاحتكام إليه واعتباره المرجعية والأصل.

ومن هذا الطرح للإسلام فى الأنظمة الحياتية العصرية وفى ضوء الممارسة العصرية للبلدان العربية والمسلمة، يستبين الجزء المغيب فى الصورة، ويبرز المعضلة الراهنة الكامنة لدى الأنظمة والفلسفات العربية العصرية، وهو أنها ليست حجة على صحيح الإسلام، ويصح القول بأن العرب عبء عليه، ودعاية سلبية له فى الحاضر.

ومن اللازم الضرورى، أن تعكف النخبة العربية على تشخيص الحالة، وأن تحدد مقدار الغلط فى المسيرة، وأن تنطلق فى رسم السياسات والفلسفات، النابعة من الإسلام، وأن تعيد تقييم مؤسساتها، وأن يقوم الاعوجاج فى السلوك العربى، بما يعبر عن الالتزام بالإسلام فى العلاقات والتعامل ونمط الحياة فى الداخل والخارج.

وهنا يغدو لازما، التواجد الإعلامى الإسلامى، كصوت فاعل ومؤثر فى التعبير عن الهوية والذاتية الإسلامية، وبيان الحقائق الإسلامية فى شئون الدين والحياة، والنفاذ إلى عقول وقلوب الجماهير بالحكمة المطلوبة، وأن تقدم الوسائل الإعلامية المجتمعات الإسلامية كمجتمعات لها خصوصية ثقافية وثوابت دينية واجتماعية وحضارية، تساهم فى التقدم الإنسانى، وترقى بالحياة فى شتى المجالات العصرية.

لقد بات ملحا على الإعلام الإسلامى أن يتصدى للتحديات والمخاطر التى تواجه الأمة، وتبغى اقتلاعها من جذورها، وأن تواجه صناعة الإعلام الغربية فى وصم الإسلام بالتخلف وعدم الصلاحية، وأن يتبنى هذا الإعلام كشف تزييف الأطروحات الإعلامية الغربية، بشأن القضايا التى تعكف على ترديدها بإلحاح، لضرب صورة الإسلام والعرب والمسلمين فى الخارج، مثل السيوقراطية والاستبداد، وخرق حقوق الإنسان، وامتهان المرأة، وإلصاق الإرهاب، إليه والتعصب واضطهاد الأقليات، وعلى الإعلام الإسلامى أن يكون صوت الإسلام، والترجمان الصادق والأمين لمبادئه وثوابته وممارساته الحياتية إبان العصر الذى قدم نموذج الإسلام الصحيح فكرا وتطبيقا وهو ما يقتضى عرضا لمبادئه وهويته وأطروحاته الحياتية، بحسبان هذا الإعلام، هو فن إيصال الحق للجماهير بقصد الإقناع به، وكشف الباطل ودحضه قصد طرحه واجتنابه، فهى إذن مهمة بناء وتحصين.

وينبغى الاعتراف بأن رسالة الإعلام الإسلامى رسالة عالمية، تعرض بموضوعية وجاذبية فى آن واحد شمول الإسلام كدين وحياة عقيدة وسلوك اجتماعى، مثال ومادة، تبنى الإنسان وتعمر الكون وترتقى به، تعبر عن خصوصية الإسلام، وقبوله للناس جميعا.

لقد آن الأوان، أن يضطلع الإعلام الإسلامى، بتقديم الفكر الإسلامى فى القضايا التى تطرح فى الإعلام الغربى من منطلق الغزو الفكرى والتى تشكل رأس حربة تطعن الوجود الإسلامى فمن المعلوم الجلى، مسخ الإعلام الغربى لصورة الإسلام، وتقديمه كنظام حكم ثيوقراطى (نظرية الحكم الإلهى). وهذا محض هراء، لأن الحاكم فى الإسلام هو حاكم مدنى من كل الوجوه وليس حاكما دينيا، ونظام الحكم فى الإسلام هو عقد اجتماعى بين الحاكم والأمة، هى التى توليه السلطة باختيارها، وهى التى تقومه، إذا انحرف وتقوم على نصحه، وتعزله إذا خرج على الشرعية الإسلامية.

ولعل فى مقولة أبو بكر الصديق ما يؤكد هذه الحقيقة: إنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى.

والحكم فى الإسلام ينأى عن الاستبداد، ويتغيا الحق والعدل، ونصوص القرآن صريحة فى هذا المعنى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨]. والشورى ركيزة الحكم الإسلامى؟ ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[سورة آل عمران: الآية ١٥٩]. وهو خطاب الله لرسوله النبى والحاكم السياسى. كذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨].

بهــذا المنحى يتجــه الخطاب الإعلامــى، بإلصاق كل اتهــام يثار ضد الإسلام، وهو ما ينبغى التصدى له ببيان الفكر والواقع الإسلامى الأول، الذى نبع من معين الإسلام والتزم تعاليمه الصحيحة غير المشوشة ولا المبتورة.

وما يدعيه الإعلام الغربى عن خرق حقوق الإنسان فى الإسلام[1]. هو تعبير عــن الانتهازية الإعلامية، التى تأخذ من الواقع المتردى الحالى سندا لها، لكى تبلغ مرادها فى تشويه الإسلام، ومصادرة مبادئ الحرية والمســاواة والحرية بشــعبها المتعددة، حرية الرأى، وحرية التعليم، والحرية الشخصية وحرية التنقل، وحرية الملكية، المكفولة فى الإسلام، ولا أدل على كفالتها من تقريرها بحســم وصراحه، فى قضية العقيدة، وهى ألصق الحريات مساســا بالإســلام، ومجابهة له، ومعلوم أن تقرير الحرية الأعلى، يتضمن تقرير الحريات الأدنى بالضرورة، وبطريق الأولى.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [ســورة يونس: الآية ٩٩].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية: الآية ٢١].

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٩٣].

وليــس أقوى من إثبات الحرية للإنســان، من خضوعه لعبودية الله وحده دون سواه، وحقه فى اختيار الدين الذى يرغبه، واقتصار العبودية لله، يســتوجب تحريره تجاه الناس، وحقه فى حرية الرأى والتعبير، وسائر الحريات الأخرى.

وعلى نفس المنوال، ينبغى تناول حقوق الأقليات، والإســلام يفارق النظــم الأخرى فى أنه لا يعامل غير المســلمين داخل دولته على أنهم

(١) انظر للباحث: حقوق الإنسان فى الإسلام، ١٩٩٩م.

أقلية، بل إنهم يتمتعون بالرعوية – جنسية الدولة – شأن المسلمين وهم مكرمون بتكريم الله لهم، ووجوب المحافظة على حقوقهم الإنسانية. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٠].

وامتثالا والتزاما بذلك، نهض الرسول ﷺ واقفا حينما مرت عليه جنازة ليهودى، فلما أخبره بعض صحابته عن أنها ليهودى، قال: أليست نفسا.

وثمة قاعدتان ذهبيتان فى معاملة غير المسلمين هما: أمرنا بتركهم وما يدينون وقاعدة: لهم ما لنا وعليهم ما علينا. وبمقتضاهما فهم أحرار فى العقيدة، وممارسة الشعائر الخاصة بهم، ناهيك عن مساواتهم المسلمين فى الحقوق والواجبات، والمشاركة فى مؤسسات المجتمع المدنى.

وتأتى حقوق المرأة فى هذا المضمار، بوجوب التصدى لما يروجه الإعلام الغربى من أفكار مغشوشة، عن وضعها فى المجتمع وفات هذا الإعلام أن المرأة مخلوق مكرم، وهى مع بنات جنسها شقائق الرجل، ونصوص الإسلام وممارساته تترى فى هذا الموضع.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩٥]. وفى الحديث: النساء شقائق الرجال.

وهى صاحبة حق كالرجل فى اكتساب الحقوق والتحمل بالواجبات:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [سورة النساء: الآية ٣٢].

وهى بموجب ذلك تتمتع بالاستقلال فى الشخصية، والذمة المالية عن الرجل، لها الحق فى المشاركة السياسية، فقد بايعت الرسول فى تأسيس الدولة، فى بيعة العقبة الثانية. فضلا عن الدفاع عن حقوقها الخاصة، والاجتماعية. فقد عارضت امرأة عمر فى تحديد المهر وسلم لها عمر بذلك قائلا: أصابت امرأة وأخطأ عمر. ولا ينفك الإعلام الغربى عن وصم الإسلام بالنقائص، ولا يفتأ أن يواصل حملته ضده بنسبة اتهام إثر آخر، ومن جملة هذه الاتهامات تصوير الإسلام بأنه دين التعصب، ورفض الآخر، ويصم أتباعه بالجمود وضيق الأفق، وهذا من الإفك الذى لا يسوغه الدين والعقل المنصف ويدحض هذا المنظومة القرآنية فى جوانبها العقيدية والتشريعية والأخلاقية والاجتماعية، فإنها تعتمد الحوار، وتبرهن على حقائق الإسلام لإقناع المخالف، وهو ما جعل الإسلام بحق دعوة للحوار والمناظرة وكلها تشهد بالسماحة والتسامح الإسلامى، وهاك طرف من هذه النصوص: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٤].

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٤]. ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٦]. ويقول الرسول ﷺ وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.

وفى الحيث: أكمل المؤمنين إيمانا أحاسنهم أخلاقا، الموطأون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون وليس المقام مقام إسهاب وتجلية لموقف الإسلام من هذه القضايا المشتعلة، والتى يقصد الإعلام الغربى من

وراء إثارتها إلى حرق الإسلام، وتقويض بنيانه من الأساس، واقتلاع هويته، وإنما هو إشارة وتوجيه لما يجب على الإعلام الإسلامى عمله فى الاتجاه الصحيح حماية لقيم الإسلام ومعتقداته وجوهر ثقافته وبناة حضارته ورموزه وستظل هذه الرسالة، هى تلخيص لطبيعة المهمة التى على الإعلام الإسلامى أن يضطلع بها، ويعبئ إمكانياته، ويحشد طاقاته من أجل إعلام الآخرين بها، لأن الوجود الإسلامى فى الإعلام الالكترونى لا يزال قاصرا، وحبيس أفكار تقليدية، وأسلوبا قاصرا عن مواجهة تكنولوجيا الاتصال، وتقنيته الجبارة، وهو ما يكرس البون الشاسع بين التفوق الغربى والانكسار الإسلامى فى مجالات شتى، ولعل ما يبرهن على عمق التفاوت بين نظام الإعلام الغربى والإعلام العربى والإسلامى، يظهر فى هلع بعض الأنظمة العربية الإسلامية من إشاعة الأفكار التحررية والديمقراطية وما قد تحدثه من ثورة على النظم السلطوية الاستبدادية، وسحب البساط من تحت أقدامها، وتقويض عروشها.

ويبرز فى هذا المقام الدور البناء الذى ينبغى أن يلعبه الإعلام الإسلامى فى تبنى أوجاع العالم الإسلامى، من احتلال أراضيه، وتدنيس مقدساته والاعتداء على حقوقه كما فى فلسطين والقدس والعراق، وحماية الأقليات المسلمة ضد الإبادة فى الفلبين والهند وبورما وكشمير وكوسوفا، والشيشان والبوسنة حيث تتعرض هذه الأقليات للعنف والمهانة، لا لشئ إلا بسبب دينها، وإصرارها على إسلامها.

وعلى الإعلام الإسلامى أن يطور نفسه، وأن يرسم خططه ويحدد أهدافه، ويعى خطورة مهمته، بما يمثله من خط الدفاع الأول، وصوت

الأمة فى تحصين عقائدها، وبعث شخصيتها، وإبراز هويتها، والمنافحة عن قضاياها، والدعوة إلى الإسـلام والتوعية به، وأن يتصدى للرد على حملات التشـكيك والتشويه فى الإعلام الغربى، حيث تزخر العديد من وسائل الإعلام بالسموم والأباطيل، والتشكيك فى الإسلام، وطمس معالمه بأساليب مكشوفة، وألاعيب مفضوحة، وهو ما سنعرض لنموذج منه مدحا وقدحا، وهو ما ينبئ عن الأسـلوب الغربى فى طرح القضايا الإسلامية.

إن الإعلام العربى الإسـلامى مطالب بأن يساهم بالحلول الإسلامية والتصورات الإسـلامية بشأن المشترك من القضايا التى باتت عالمية فى طبيعـة محتواها، مثـل البيئة والإرهاب والمخـدرات والإيدز، وإنهيار الأسـر والأخلاق وما على شاكلتها من المشـكلات الضاغطة التى تؤرق العالـم، والتـى تحتاج إلى تضافـر الجهود، وإيقـاظ الضمير العالمى، وبالقطع فإن للإسلام موقفا ناصعا ليت إعلامنا ينجح فى تقديمه للعالم، ويقينا فإنه سيساهم فى إيجاد العلاج لها، والحد من الآثار الضارة لها، وترشيد السلوك الإنسانى إزاءها.

* * *

نموذج واقعى لصورة الإسلام فى الصحافة الغربية

المقال الأول لمجلة الفيجارو

الإسلام والتسامح

(عدد السبت ٩ يناير ١٩٩٩م)

عرضت الصحيفة جزئين لكاتبين مختلفين

الأول: يشيد بمبادئ الإسلام وسماحته

جاء فيه : إن الإسلام يدعو للتسامح والتآخى بين الديانات كما يؤكد القرآن فى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦]. وهى الآية : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦].

وإن كل تجاوز أصولى مرفوض: الإسلام هو (المجتمع الوسط) يدعو الإسلام الناس كافة للتسامح والتصالح، وينشىء الإنسان على تعاليم التسامح والعفو عن المنكر وعلى أخلاق الفضيلة الإسلامية : مثل الآيات التى تدعو الإنسان إلى «دفع الأذى بالحسنى» [سورة يوسف : الآية ٣٤، سورة المؤمنون: الآية ٩٦، وسورة يوسف : الآية ٢٢]. تصور قيمة تلك المفاهيم فى الإسلام.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣].

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٢].

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾[سورة المؤمنون: الآية ٩٦].

حتى فى أقصى حالات الدفاع عن النفس، فإن هذه النصوص لا تقبل العنف المبالغ. ويقيم القرآن قوانين تهدف إلى الحفاظ على القيم الإنسانية والتسامح حتى فى أقصى الحالات كما تنص عليه الآية التى تدعو المسلمين فى وقت الحرب إلى الأخذ فى حماية أى عدو لهم يطلب النجدة.

وهى الآيه: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦]

وهذا المقال يمثل معالجة موضوعية ومنظورا نموذجيا للإسلام من واقع نصوصه ومواقفه وهو تصوير جدير بترسيخ قيم التعايش والتسامح بين الحضارات والثقافات، والبحث عما هو مشترك لنتعاون فيه والبعد عن التصادم والتشاحن لتكريس التعايش الأممى فى ضوء الاعتراف بالتعددية وعلى حد التعبير الأصولى: اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد وهو ما يجدر معالجة الخلافات الثقافية والأيدلوجية بين الدول وفقا له.

أما المقال الثانى المعارض لفكرة تسامح الإسلام:

فقد تناول ما يلى:

إن المدافعين عن الإسلام يشيرون دائما إلى آية (الحق وانتصر الباطل). [سورة البقرة: الآية ٢٥٦].

كان يعنى الآية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦].

وليس الآية: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٧].

إلا أن أغلب الغربيين، والذين لم يقرأوا القرآن لا يستطيعون فهم مدى المغالطة والاحتيال الذى يتضمنه هذا الادعاء.

فنعتقد (كغربيين) أن القرآن كتاب مقدس يمكن فهمه انطلاقا من نفس مفاهيم الإنجيل، إلا أن هذا غير صحيح، فإن القرآن فيه آيات تم إلغاؤها (المنسوخ) وآيات التى تلغى أخرى (الناسخ) وإن أكثرية الآيات من النوع الثانى فمن أصل ١١٤ سورة، فإن هناك ٤٣ فقط ليس بها ملغى أو لاغى.

وإن هذا الأمر يدعو بطبيعة الأمر للدهشة وغير متوقع من الغربيين الذين لا يعلمون أن جزءا مهما من القرآن قد ألغيت آياته بأخرى، وأن

المعاصرين لمحمد ﷺ كانوا أيضا مدهوشين بهذه الهندسة المتغيرة.

فكيف يمكن معرفة عندما تتناقض سورتين أى السورتين يتم الغاؤها وأيهما هو الذى أصح ولاغى للآخر؟.

إن الموضوع موضوع تاريخ وإن الأخيرة تلغى كل ما يسبقها والتى تعد مخالفة لها وإن النصوص المتسامحة خاصة بشأن غياب الإكراه فى الدين يأتى فى سورة البقرة التى هى مكية، وإنها إحدى أقدم السور فى وقت كان الإسلام أقلية وكان محمدا ﷺ مهددا بالقتل وإن التسامح كان يتم تقديمه على أنه أمر من الله لأن ذلك كان ضروريا للإسلام فى نشأته ولكن عندما قوى الإسلام وأصبح قادرا اختلفت اللهجة وإن الآية الاكثر عنفا هى تلك المعروفة باسم آية السيف [سورة التوبة: الآية ٢٩]

وهى الآية: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٩].

كما أن إحدى أهم مصادر الإيمان الإسلامى هو الإجماع بمعنى التوافق وإن هذا المصدر هو الحديث الذى ينسب إليه قول محمد ﷺ "إن أمتى لن تنفق أبدا على الخطأ [أبو داوود ٣٤ ، ١ الترمذى ٧ ، ٣١ وابن ماجة ٨ ، ٣٦] وإن واقع الأمر أن اللجوء إلى العنف المسلح كأسلوب شرعى من أجل نشر الإسلام وإنه يحظى بالإجماع بين كل المشرعين والأساتذة المسلمين.

وإن الادعاء بأن الإسلام يمكن أن يكون معتدلا قائما على أن عملية احتيال فى ثلاث جبهات. على الأقل:

* تخفى عملية إلغاء للآيات المتسامحة.

* تخفـــى أن محمــد ﷺ هو النموذج الجميـــل وإن أعماله يجب أن تتبع، بينما فى واقع الأمر هو الذى نشــر الإســلام بحد السيف واعتمد القتل المبرمج لكل الذين رفضوا اعتناق الإسلام أو كانوا يعارضون أفكاره.

* كما انها تخفى أيضا مصادر الإيمان فى الإسلام بشأن انتهاج العنف.

إننـــا نغفل الغـــرب فى كثير من الأحيـــان أن محمدا ﷺ كان رئيس الحكومــة وقائد جيش وشــرطة وزعيم دينى فـــى آن واحد، وإنه يبقى «النموذج الجميل» كيف يمكن التخيل ألا تســتعين السياســة بالســند الدينى، كما أنه يصعب التصور ألا يستعين رجل الدين بالطرق السياسية التى تتاح له وإنه فى هذا الوضع يصعب تفادى الديكتاتورية.

* * *

مغالطات مقالة صحيفة الفيجارو الفرنسية التى تعارض فكرة التسامح فى الإسلام

نسب المقال إلى المدافعين عن الإسلام وتسامحه تجاه المخالفين فى الدين، إنهم يلجأون إلى المغالطة والاحتيال، ذلك أنهم يستندون فى دعواهم إلى الآية ٢٥٦ من سوره البقرة: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

ومع أن الآية قد نقلت خطأ فإنها تقرر صراحة حرية اعتناق الدين بوازع من الاختيار والإرادة الصحيحة الخالية من الإكراه والجبر، فإن صاحب المقالة ينبه القارئ الغربى إلى أنه لا ينبغى فهم القرآن انطلاقا من نفس مفاهيم الإنجيل، فإن مثل هذا الفهم غير صحيح، ويعزو ذلك إلى أن أكثر سور القرآن تضمنت آيات ملغية (منسوخة) وعلى حد زعمه فإنه يوجد ٤٣ سورة فقط لا تشتمل على إلغاء أو نسخ من أصل ١١٤ سورة هى مجموع عدد السور التى اشتمل عليها القرآن، الأمر الذى يعنى أن تلك الآية التى تنفى الإكراه فى الدين داخلة فى جملة الآيات الملغية (المنسوخة) ومن ثم فلا يعول عليها فى تقرير حرية العقيدة فى الإسلام.

والواقع أن كاتب المقال قد زيف الحقيقة فى ادعائه هذا، فيما يتعلق بوضعية الآية التى استشهد بها المدافعون عن الإسلام أو بشأن

مسألة الإلغاء أو النسخ التى أطلقها بدون تمحيض ولا تدقيق، وإنما ساقها للتدليل على رأيه دون سند ولا برهان.

فيما يتعلق بآية: لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى.. "فإن هذه الآية بألفاظها ومعناها، هى من محكمات القرآن التى لايثور الشك حول مدلولها فى تقرير حرية العقيدة، وأن هذه الحرية هى أصل من أصول الإسلام، وقاعدة دينية كبرى من قواعده التى ينبغى على الفرد والدولة فى الإسلام أن تلتزم بها، ويتعامل المسلمون مع الخالفين فى العقيدة على أساسها فردا كانوا أو جماعة.

يبرهن على صدق هذه الحقيقة، أن هذه الآية ضمن سورة البقرة والسورة جميعها نزلت فى المدينة، وكان للإسلام آنذاك دولة وقوة واعتراف من الآخرين، ولم يكن ضعيفا بحاجة إلى أن يتودد إلى المخالفين يخضع لهم، فقد كان مصيره يقرره بنفسه دون خوف سطوة الأعداء فالثابت أن هذه الآية نزلت فى غزوة بنى النضير التى كانت فى السنة الرابعة للهجرة بعد غزوة بدر الكبرى التى انتصر فيها المسلمون على قريش، فى الوقت الذى نقض فيه بنو النضير المعاهدة التى أبرموها مع النبى ﷺ. بعد أن كادوا له وخططوا لاغتياله مرتين وهم الساكنون بجواره فى المدينة، فلم يكن له بد إلا إجلائهم عن المدينة، فلما أجليت بنو النضير كان فيهما بعض أبناء الأنصار الذين يعتنقون اليهودية فأراد هؤلاء الأنصار إكراه هؤلاء الأولاد على الإسلام فنزلت آية: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾.

وروى أيضـا أن رجلا مـن الأنصار يقال له الحصيـن كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسـلما، فقال للنبى - ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله الآية:

ومفـاد ذلك أن القرآن يقـرر حرية الاعتقاد، ويحظـر الإجبار على اعتناق الدين، غاية الأمر أنه يجعل واجب المسلمين أن يدعوا لدينهم، وأن يعرضوا مبادءه للناس وكل إنسان صاحب حق فى أن يختار الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو أى دين آخر. وقد رسم القرآن منهج الدعوة إلى الإسـلام بقولـه تعالـى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥].

وقد يقال إن القرآن احتوى على العديد من الآيات التى تقرر الجهاد ضد الكافرين والرد على ذلك فى كلمة أن الجهاد تقرر حماية لحق اختيار الإسـلام، وحماية لحرية العقيدة، ضد المعتدين عليها، وضد الفتنة فى الدين تجاه ضعاف الإيمان، ورد العدوان على الوطن الإسلامى، وحروب الرسـول ﷺ من واقع استقراء التاريخ، تدل على أنه لم يقاتل المخالفين فى الدين إلا لأمرين: إما اعتداء سـابق وقع من المشركين، وإما بسبب منع الحكام الرسـول والمسلمين من الدعوة للإسلام، وسعيهم نحو فتنة المسلمين وردهم عن دينهم. ولنا أن نتساءل هل أكره الرسول ﷺ مشركى قريـش على اعتناق الإسـلام عند فتح مكه؟ بعـد أن دانت له بأرضها ورجالهـا، وكان فى قمة العزة والنصر وقال قولته الشـهيرة: لا تثريب عليكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء وهو ما يؤكد على أن العلة فى الجهاد ليست المخالفـة فى الديـن، وإنما الأمر عدوانى يهدد الإسـلام ووطنه وأهله.

ادعاء نسخ الآيات

أما عن مسألة إلغاء الآيات والسور (النسخ) مع التسليم بوجوده فى كل التشريعات والقوانين، إلا أن رؤية الإسلام له تتمحور فى وضعيته فى المنظومة التشريعية الإسلامية، وفى مفهومه فى هذا السياق، وتجلية الصورة برمتها يجعلنا نثبت الحقائق التالية.

أ - أن النسخ يقع فى الفروع والجزئيات، لا فى الأصول والكليات وعليه فلا يجوز الإلغاء لمبدأ كلى جوهرى فى الدين مثل التوحيد ووحدانية الله، والإيمان بكل الأديان السماوية والرسل جميعا، وحرية العقيدة، وحماية الدين والنفس والعقل والمال والعرض.

ب - أن الإلغاء (النسخ) استثناء فى الإسلام، وليس أصلا فى الفروع والجزئيات، لسبب بسيط وهو أنه لو كان أصلا يعمل به لأدى ذلك إلى هدم الدين، وتعطيل الشرائع، وتقويض النصوص، والتشكيك فى المنظومة التشريعية كلها، كما يقصد كاتب المقال بزعمه أن أكثرية الآيات والسور فى القرآن ملغية.

جـ - أن الآيات الملغية فى القرآن، هى آيات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة مثل نسخ الصلاة تجاه بيت المقدس، وحبس الزانية فى البيت، وتقديم صدقة عند مناجاة الرسول، وقد تم استبدالها بأحكام أخرى فى القرآن بالصلاة تجاه الكعبة، وعقوبة الجلد على الزانية، والإعفاء من تقديم صدقة عند مناجاة الرسول. وهذه هى المواضع التى اتفق العلماء على وقوع النسخ فيها. فأين هذا من إطلاق الكاتب دعوى الإلغاء، لقد كان حريا به أن يراجع أقوال العلماء فى الإلغاء (النسخ)

قبـل أن يعمم القول، ويدعى بغير سـند، ويتجنـى على أصول المنهج العلمى الذى يؤسس القضية على البرهان.

د – أن الإلغاء أو النسـخ فى الإسـلام يكون بقصـد التخفيف على المخاطبيـن بالأحكام الشـرعية، أو تحقيقا لمصلحة دينية أو اجتماعية عامة، وأخـذا فى الاعتبار لـكل الأحوال والأزمنة والأشـخاص، فهو منضبط بالضوابط الشرعية وبمقاصد الإسلام وأهدافه العليا فى الحياة.

هـ – أن مفهوم الإلغاء (النسخ) الواقع فى المنظومة الإسلامية القرآن والسـنة الإجماع، يشـتمل على إبدال حكم مكان آخـر، ابتغاء تحقيق مقصد دينى أو اجتماعى أو تخصيص حكم جاء عاما أو تقييد حكم ورد مطلقا، أو تفصيل ما ذكر مجملا، إلى غير ذلك من الأغراض التشريعية فى البيان والتفسـير، التى تجعل النصوص التشـريعية جلية فى مبناها ومعناها ليسـهل على المخاطبين الإلتزام بها، والعمل بمقتضاها. وعلى الرغـم من كل ذلك، لم يفطن كاتب المقال إلى المفهوم الحقيقى للإلغاء (النسخ) ولم يحرر مصطلحه، وهو أمر فى غاية الأهمية لدى المشتغلين بالدراسات الشرعية والقانونية، فإن الواجب الأساسى لمن يتصدى لمثل هذه القضايا أن يقوم بتحديد المفاهيم على وجه دقيق.

وبناء عليه، فإن ما سـاقته الصحيفة من مزاعم صكت بها مسـامع القارئ الغربى من أن جزءا مهما من آيات القرآن ألغيت بآيات أخرى، وأن المعاصرين لمحمد ﷺ كانوا أيضا مدهوشين بهذه الهندسة المتغيرة، هو تحريف للإلغاء (النسـخ) شـكلا ومضمونا، وافتئـات على الحقيقة القرآنيـة والواقع التاريخى، لأن القرآن كتـاب مقدس أحكمت آياته،

وجاء خاليا من التعارض والتناقض ومتكاملا فى هندسته من حيث النظم والمعنى، ويتجلى ذلك فى تحدى القرآن للكافرين فى أن يأتوا بآية مثل آياته وعجزهم الذريع والمتكرر فى محاكاته، وتسـليمهم بهذا الإخفاق والعجز، وإشادة أقطابهم - الوليد بن المغيرة - بآيات القرآن وهم أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة.

ثم نتساءل مع الكاتب، هل تفرز الهندسة المتغيرة، كل هذه الحقائق الإيمانية والاجتماعية والتاريخية والعلمية، التى عضدتها وشـهدت بها المعارف الحديثة؟ وهل تقارن كم المعارف الصحيحة فى شتى المجالات التى جاء بها القرآن مع ما ورد من معارف فى التوراة.

أما بالنسـبة لما يدعيه الكاتب بخصـوص أن آية النهى عن الإكراه قـد وردت فى سـورة البقرة، وهـى مكية، وأنها نزلـت فى وقت كان الإسـلام أقلية، وكان الرسـول مهددا بالقتل، فإن هـذا القول عار عن الصحة، شـكلا ومضمونا فإن سورة البقرة مدنية وليست مكية والإسلام لم يكن وقت نزولها أقلية، وإنما كان دينا يغزو القلوب والعقول بمبادئه الدينيـة، وحجته الدافعة، وخطابه الإنسـانى المتـوازن للروح والمادة والعقل والوجدان، فى الوقت الذى كان للمسـلمين مجتمع، وللإسلام، ووطن، وصاغ دسـتور دولة المدنية التى عاش فيها المسـلمون واليهود والوثنيون فى سـلام ووئام. ولم يكن محمد ﷺ مهددا بالقتل وإنما كان هو الذى يصنع الأحداث ويوطد أركان الدولة ويدعو للإسلام على بصيرة وهـدى. والمضطلـع على آيات سـورة البقرة، يجد أنهـا تحتوى على العديد من التشـريعات الخاصة بالأحوال الشخصية والمعاملات المدنية

والجنائية والعلاقات الدولية، فهى تنظم أحوال المجتمع المدنى، لأنها أطول سورة فى القرآن.

وبمضــى الكاتب فى جملتــه العدائية ضد الإســلام وكتابه المقدس القرآن، فيقول إن الإســلام عندما أصبح قادرا اختلفت اللهجة، واستدل علــى ذلك بما ســماه بآية الســيف فى قولــه تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٩].

والملاحظ على الآية أنها تتحدث عن ضعف معين من أهل الكتاب، هــم ذلك النفر الذى تــورط فى أربع صفات ســلبية لا تتناقض فقط مع القرآن، وإنما تتناقض كذلك مع التوراة والإنجيل، هذه الصفات تتنافى مع أصول الإيمان فى الأديان الثلاثة اليهودية والمســيحية والإســلام، وهــى عــدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وكونهــم لا يحرمون الأمور التى حرمها الله ورســوله المبعوث فيهــم، ولا يدينون دين الحق لأن حقائق الأديان الثلاثة تنبــع من مصدر واحد، وتهدف إلى غاية واحدة، وهى عبادة الله الواحد وإرساء العدالة، والأخوة الإنسانية وعمارة الكون. فإذا أضيف إلى ذلك أن هذا الضعف من أهل الكتاب، وليس كل أهل الكتاب بدلالة الآيــة: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ فهى تدل على البعض لا الكل، يعيشــون داخل دولة الإسلام ويعايشــون المسلمين والأديان، فــى دولة تتأســس هويتها على الإيمان بالله الواحد والأديان الســماوية جميعا، والرسل بلا تفرقة بينهم والملائكة واليوم الآخر، وتحل الحلال

وتحــرم الحرام وهو الأمر الذى من شــأنه أن يقوض الأســاس العقائدى فى اليهودية والمســيحية والإســلام، ولو التزم هــؤلاء بتعاليم اليهودية والمســيحية بحقائقها الدينية الحقة لالتزموا بالإسلام ولم يخرجوا على شعائره ونظامه.

إذا علــم ذلك، صح القــول بأن العلة فى قتال هــؤلاء النفر من أهل الكتاب، هو وقوعهم فى هــذه المعاصى، وانتهاكهم لمقررات الأديان، وليس العلة كونهم من أهل الكتاب، واعتناقهم دينا آخر غير الإسلام.

فإذا انتقلنا من الوقوف على علة القتال المشــروطة والمقيدة بارتكاب أهــل الكتاب لهذه المخالفــات، إلى تحرى علة إعطــاء الجزية، وقد جعلت غاية فى الآية، لقتال الحاملين لراية العصيان على الإسلام وأهله مــن أهل الكتاب، فإن الجزية إنمــا تجب بديلا عن الحماية والنصرة، حيث إن الدولة الإسلامية ملزمة بالدفاع عنهم ضد أى اعتداء داخلى أو خارجى تقابل التزام المسلمين بدفع الزكاة فكل منهما واجب اجتماعى دينى، لكى ينتظم كيان الدولة، وتتوازن الواجبات بين رعاياها.

وقــد ذهــب بعض الفقهــاء إلى أن علــة وجوب الجزيــة على أهل الكتــاب، هى حماية المســلمين لهم ودفاعهم عنهــم، وليس الخلاف فــى العقيدة هو مــا يوجب على المســلمين أن يســقطوا عنهم الجزية إذا لــم يقومــوا بالدفاع عنهم، وهو ما حدث بالفعــل من أبى عبيده بن الجراح عندما أمر قواد جيشــه بأن يردوا لأهل الكتاب ما أخذمنهم من جزية عندما لم يســتطع المســلمون أن يدافعوا عنهم ضــد هجمة الروم بســبب الجموع الحاشــدة التى عبئوها ضد الدولة الإســلامية بما فيها

من المسـلمين وأهل الكتاب، وقد أدى هذا الموقف إلى القول بأن أهل الكتاب إذا اشـتركوا مع الجيش المسـلم فى قتال العدو سـقطت عنهم الجزيـة، بناء علـى القاعدة الفقهية: الأحكام تبنـى على العلة وجودا وعدما، فإذا وجدت العلة وجد الحكم، وإذا انتفت العلة انتفى الحكم.

هـذا التوضيح للنص الذى وصمه الكاتـب بأنه الأكثر عنفا ضد أهل الكتاب يكشـف عن انحيازه ضد الحقيقة، وتنكبه عن مناهج التفسـير الصحيحة للنصوص، وعزل النص عن سـياقه، وتأويله تأويلا سـقيما، واجتزاء بعض النـص، وفصله عن بقية التركيب، والوحدة العضوية له وفى سياق مسلسل الهجمة على الإسلام، يزعم أن أسلوب العنف يحظى بالإجماع بين كل المشـرعين والأساتذة المسـلمين. وهذا الكلام يتضمن فرية أخرى على الإسلام والمسلمين، فإن الإجماع هو اتفاق وليس توافق المجتهدين فى الأمة على حكم شرعى.

ناهيك عن أن ما يقوله الكاتب يخالف نص القرآن والسنة، فلا يوجد إجماع بالمرة حول العنف المسـلح، بـل احترام للمواثيق والمعاهدات، والاعتصام بالسـلم ما وجد إلى ذلك سـبيلا، ونصـوص القرآن متضافرة حول الدعوة للسـلم، وسلوك طرقه مثل قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [سـورة البقرة: الآيـة ٢٠٨]، وقوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سـورة الأنفـال: الآيـة ٦١]. وقولـه: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧].فمن أين استقى الكاتب هذا الاجماع، وما هو مصدره؟

ويبرز الكاتب فى ختام مقالته جوانب الاحتيال - بحسـب ادعائه - فى الخطاب الإسلامى، ملخصا لها فى ثلاثة:

– إخفاء إلغاء (نسخ) الآيات التى تدعو إلى التسامح.

– إخفاء أن محمدا هو الذى نشــر الإســلام بالســيف واعتمد القتل المبرمج لكل الذين رفضوا اعتناق الإسلام.

– إخفاء المصادر الداعية إلى انتهاج العنف.

إن نقطــة البدء فى جملة الخطايا التى وقع فيها الكاتب، إنه اعتمد الخطاب الغربى الشــائع عن الجهاد – الحرب المقدسة – فى الإسلام والموروث التقليدى المعادى للإســلام فى الغرب، وحاول أن يلبس هذه الأغاليط مســوح الحقيقة، وما هى من الحقيقة بشــىء، فوجد فى فكرة الإلغاء (النســخ) ضالته المنشــودة، فما كان منه إلا أن عدد الإخفاءات الثلاثة التى سردها توا.

وفــى هذا الســياق ننبه على حقيقــة أن إلغاء الآيــات الداعية إلى التســامح لم تقم إلا فى رأســه هــو، فآيات القرآن جميعــا الداعية إلى الجهــاد، أو الداعية إلى التســامح، هى آيــات محمكة، يجب العمل بها فى موضعها، فالجهاد مع الأغيار، إنما يكون ضد أعداء الإســلام، الراغبيــن فى اســتئصاله، الناقضين لعهودهم مع المســلمين، المعتدين على الأرض الإســلامية، المستلبين لحقوق المسلمين، والمغتصبين لها، والجهاد هنا يكون لاســتبقاء الإسلام عزيز الجانب كدين إنسانى يحافظ على القيم والكرامة الإنســانية ويدعو إلى التعايش الآمن مع المخالفين، ولتأصيــل الوفاء بالعهود، ولاســتعادة الأرض الســليبة، ولحماية حق المسلم فى إسلامه وكرامته، وهو ما نربأ بالحضارة الغربية الحديثة بكل رصيدها أن تنكرها على الإسلام والمسلمين.

وبجانب ذلك فإن الآيات الداعية إلى التســامح هى نصوص محكمة لم تنسخ (تلغ) وإنما هى باقية يجب العمل بها مع من لا يتآمرون على الإسلام ومن لا يغتالون حقوق المسلمين، وينبغى على المسلم أن يتعامل بهــا مع الناس إذ إنها جزء من عقيدة المســلم، وتعبر فى نفس الوقت عن قيم الإسلام وعطائه للإنسان، وليست هذه الآيات التى تعتمد منهج التســامح قاصرة على الفترة المكية، وقت أن كان المسلمون قلة، فإنها موجودة وقائمة فى الفترة المدنية، فالآيات الداعية إلى السلم فى سورة البقرة وقد أوردناها فى سورة مدنية وكذلك آية سورة الأنفال عن الجنوح – الميل للســلم – وهى سورة مدنية، فكيف يختزل الكاتب الإسلام فى العنف وقتال المخالفين فى الدين، ويبدد كل مســعى للتفاهم والتعايش مع المسلمين بدعواه بنسخ حرية العقيدة والتسامح تجاه غير المسلمين؟

وكيف يدعى أن الإســلام انتشر بحد السيف وأن الرسول محمدا هو الــذى قــام بذلك وأنه اعتمد القتل المبرمج؟ لقد كانت حروب الرســول دفاعــا عن دين الله، فــى مواجهة هؤلاء الذين تربصوا لقتله وطردوه من وطنه وألبوا عليه الآخرين، وحاربوه بكل الأسلحة الحربية والاقتصادية، والاجتماعيــة، عندما تآمروا على قتله وطــاردوه حتى نجاه الله منهم، وقد قاطعــوه اقتصاديا، وامتنعوا عن معاملته ومن معه من المؤمنين بيعا وشــراء، وزواجا حتى يختنق وتموت دعوة الإســلام من الحصار، وهم الذين حشــدوا الجيوش فى سلســلة الغزوات العديدة، بغية اســتئصال شــأفته، ولكــن أراد الله أن ينتصــر الحق والفضيلة علــى قوى الباطل والبغــى، فهل يقال إن دفاع محمد عن دين الله وعن نفســه والمؤمنين قتلا مبرمجا، وفرضا وإكراها للآخرين على اعتناق الإسلام؟

لقد انتشـــر الإســـلام بقوة ســـلطانه علـــى النفوس، والقيـــم الإيمانية الإنسانية التى يحملها، ووصل إلى أراض بعيدة سلما كما هو الشأن فى الهند وجزر الملايو وأندونيسيا وغيرها بانتهاج الحكمة والمعاملة الحسنه مـــع غير المســـلمين، عن طريـــق العلاقات التجارية التـــى كانت تعبيرا حضاريا عن نموذج الإسلام كنتيجة للفتوحات الإسلامية، بسبب مقاومة حكومات هذه البلدان للإســـلام، وعدم إتاحة الفرصة للتعريف بالإسلام، والاضطلاع على مبادئه الإيمانية والحياتية، وهو ما يبدد وهم أن الإسلام قد انتشـــر بحد الســـيف ويكشـــف عن الأغاليط الكثيرة التى أوردها هذا الكاتب وغيره من الذين يعمدون إلى تشويه الإسلام ووأد حقائقه.

***

التقرير الأمريكى المشبوه عن الحريات الدينية

أصبح مألوفا فى التقارير الدولية عن الحريات الدينية التى تسطرها لجان وهيئات أمريكية معنية برصد ومتابعة حالة الحريات ألا يعبأ صانعوها بما يجب أن تلتزم به من الشفافية والحيدة خاصة فى القضايا الإسلامية التى تجرى أحداثها فى العالم الإسلامى، فالحاصل أن تتبنى هذه التقارير معايير مزدوجة، لتحقيق أهداف ومقاصد تصب فى خدمة السياسة الأمريكية، ومكمن الخطورة فى هذا المسلك هو التزييف فى الأمور الدينية بما لها من طبيعة مقدسة، ونموذج ذلك تقرير الحريات الدينية الصادر عن لجنة الحريات الدينية الأمريكية لعام ٢٠١٠م، وما احتوى عليه من أغاليط عن الحالة الدينية وحرية العقيدة فى مصر.

فقد حفل التقرير فى مجموعه على مدى ١٧ صفحة من إجمالى عدد ٢٠ صفحة، على إيراد وقائع تبرز تكريس حالة الفرقة وانتهاك المواطنة، وتمزيق النسيج الواحد، والإخلال بمبدأ المساواة بين أبناء الجماعة المصرية.

ويعجب المطلع على التقرير من طمس القسمات والملامح المميزة للجماعة الوطنية فيما آلت إليه الأوضاع المجتمعية فى مصر، من تفسخ وتشرذم وهو ما يرسخه الأسلوب والمنهج، فليس الاختلاف ناشئا فى نظر التقرير عن تعددية طبيعية داخل المجتمع المصرى، عاش عليها

المصريـون عبر أزمان وقـرون فى نموذج وحدوى وتماسـك اجتماعى، ومرتكز عقدى إيمانى يجمع بين المسـلم والمسـيحى فى وطن متآلف، وقواسـم مشـتركة ومصلحة مجتمعية كما أثبتته حقائـق التاريخ، وإنما طائفية ومواجهة أفرزت الاسـتنفار والتربص والانقسـام الذى صار إليه المجتمع، وهذا ما يلمسـه بجلاء ما ضمنه التقرير من وجود ممارسـات تنطوى على تمييز وأعمال قمعية ضد المخالفين للأغلبية المسـلمة؛ فقد حشد التقرير الإشكالية عمليات التمييز والاضطهاد من الحكومة والرأى العـام الضد حرية العقيدة، وحق ممارسـة الشـعائر لأبناء الوطن، ممن يشكلون بنيته المجتمعية، فوفق منظور التقرير يتشكل المجتمع المصرى من جماعات الشتات مسلمين سنيين وشيعة، ومسيحيين وبعض اليهود والبهائييـن، يصورهم كجزر منعزلة يتطاحنـون فيما بينهم، ويندفعون نحو الشـقاق وسياسـة الإقصاء وفرض الأيدولوجية الأحادية، والاتجاه إلـى تفكيك بنيـان الجماعة، وضـرب وحدتها التـى انطبعت عليها الجماعـة الوطنية، وكان شـاهدا عليها الدولـة المركزية منذ عهد مينا موحد القطرين.

ولم يكن الفتح الإسلامى لمصر إلا تأكيدا لهذا التوحد، وإرساء لقيمة التسامح بين المسلمين والمسيحيين من أقباط مصر، انصهر فيه الفاتحون المسلمون الذين لا يزيد تعدادهم على الثمانين ألفا على أقصى التقديرات، فكانـوا عنوانا على الأمان المجتمعى، واعترافا بالتعددية الدينية حصنا للجماعة كلها يربط بينها الصالح العام والتعايش المشترك، وإن اختلف الدين.

لكــن التقرير يأبــى إلا أن يؤكد على الشــقاق فى بنيــة المجتمع ، حيــث تتناثر الجماعة ويصــارع بعض عناصرها البعض الآخر، ســواء فيمــا بين المســلمون فهم فرق متصارعة تتوزع إلى أهل ســنة وشــيعة وقرآنييــن وأحمديــة وبهائيــة ، أو فى الخلاف الحاصل بين الكنيســة الأرثوذكسية والكنائس الأخرى، وشهود يهوه، على النحو الذى يقوض بنية المســيحيين كذلك، نتيجة الخلافات والصراعات التى توجد بين هذه الطوائف.

وكأن التقريــر بهذا التصوير الــذى أورده للجماعــة الوطنية، يعيد اكتشــاف الجماعة المصريــة فى محنتها، فهو يجعلهــا متنافرة يتعذر إقامة المجتمع الواحد بين عناصرها ويورد التقرير صورا من الممارســات التمييزية ضد المســلمين وغير المسلمين، فالبهائيون لا تعترف الحكومة بالحالة المدنية عند زواج بعضهم البعض، فلا تصدر لهم الوثائق الرسمية، وتنكر عليهم الخصوصية فى الأحوال الشخصية وهو ما يسبب مشكلات لأولادهم بالنســبة للتمتع بحقوق المواطنة فى التعليم والوظائف العامة.

ويتناســى التقرير الأســباب التى أدت إلى هذه الأوضــاع الغريبة، وأســلوب المعالجات الأمنيــة فى التعامل معها حتــى أوجدتها بحكم ممارسات النظام السابق، على حساب هوية المجتمع والنظام العام الذى يجب احترامه وعدم الخروج عليه فى كل الدســاتير والأنظمة السياسية والمدنية، ولا يجوز تحدية والانقلاب عليه باسم الحرية المنفلتة.

وفى هذا السياق، فإنه لا خوف على أى مواطن فى الدولة الإسلامية فى الحصول على حقوقه الأساســية ومنها التعليم العام والصحة وغيرها

من المقومات إعمالا لقاعدة: "لهم مالنا وعليهم ما علينا" . لكن لا يجوز تغيير الهوية والنظام العام، باسم حق المواطنة لكل أفراد المجتمع، ذلك أن مبدأ الأغلبية فى صنع القرار وتنفيذه مبدأ ديمقراطى تنادى به وتسير عليه النظرية الأمريكية والغربية.

وبخصوص ما أشار إليه التقرير من التضييق على الشيعة والقرآنيين والأحمديين من الجماعات الإسلامية فإنها إفراز المعالجة الأمنية التى اتبعها النظام السابق فالتعامل يجب أن يكون وفق سيادة القانون والوعى بأن إفراز هذه الجماعات منشؤه فهم خاطئ للإسلام يسعى إلى الطائفية والتحزب فى الدين الإسلامى، وهو انحراف عن المبدأ الإسلامى الذى يعتصم بالوحدة الدينية للمسلمين جميعا وينهى عن تفسيرات خاطئة قادت إلى وجود جماعات أشبه بالميليشيات الدينية، وهو ما يناقض قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٩]. وبالوحدة الوطنية: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٤]. ومصلحة الجماعة فى الانصهار بين مكونات الجماعة مهما تنوعت أفكارها.

ومن بين المغالطات التى حرص التقرير على إيرادها مسألة دور العبادة، والحظر المفروض على بناء الكنائس، والمصاعب التى يواجهها المسيحيون فى عمليات الترميم وصيانة الكنائس، وهذا النهى لا محل له فى النظر الإسلامى، لأنه فرع من أصل الحرية الدينية لغير المسلمين، وحق المسيحيين فى ممارسة شعائر الدين، فقد أمرنا بتركهم

ومايدينون، يشهد عليه رصيد العهود والمواثيق التى التزمت بها الدولة الإسلامية فى ممارسة هذا الحق، كما حدث مع أهل نجران، ومع أهل إيلياء (القدس) وغيرهم، بل إن الرسول ﷺ سمح لوفد نصارى نجران بأداء الصلاة فى المسجد النبوى.

كذلك فإنه على مستوى الدولة، تتجه حكومة ثورة ٢٥ يناير نحو إصدار قانون موحد وعادل لدور العبادة بديلا عن المرسوم بالخط الهمايونى الذى صدر عام ١٨٥٦م، كما أن الدولة قامت بفتح العديد من الكنائس المغلقة تمكينا للمسيحيين من ممارسة شعائرهم وهى بصدد تنظيم بناء الكنائس وأعمال الترميم وفق معايير عادلة وواقعية.

أما أعمال العنف الدينى فإن العلاج يقوم على أساس تطبيق صحيح القانون والتأكيد على سيادته ومساواة الجمع فى الخضوع له، بجانب الفعاليات الدينية من جانب الأزهر والكنيسة فى بيت العائلة لوأد الفتنة وتثقيف المسلم والمسيحى بصحيح الدين، وأصول التعايش فى ظلال السلام الاجتماعى. فما أورده التقرير بشأن حل العنف الدينى والفتنة الطائفية بواسطة جلسات الصلح مردود عليه غير مقبول.

تبقى مسأله تغيير الدين وتحول بعض المسيحيين إلى الإسلام أو العكس، وهى مسألة شائكة وتنذر بفتنة لا يعلم مداها إلا الله تعالى، إن لم يتم معالجتها بحكمة وحسم وبغض النظر عن المبالغة فى عمليات الإكراه والتمييز ضد المسيحيين مما أورده التقرير، فإن هذا الملف يجب أن يعالج من خلال ميثاق الأخوة الدينية والوطنية بين الأزهر والكنيسة بما يفوت على المغرضين والمتلاعبين بحرمة الأديان والأوطان سوء

قصدهــم، وبما يؤكد على أن الدين جاء عن قناعة وإيمان حقيقى وليس لأغراض نفعية أو مقاصد دنيوية.

ويجــدر أن يتحقق ذلك بوســاطة تكوين لجنة مشــتركة بين الأزهر والكنيســة ومشــاركة بعض الشــخصيات العامة والمجتمع، وأن يكون النصح والإرشــاد وتقدير شتى الأبعاد وضمان السلام الاجتماعى والوحدة الوطنية هــو الطريق للتعامل مع هذه القضيــة، والمهم هو إرادة التنفيذ للحفــاظ على التعايش بين جماعة المؤمنين وهو ما يشــيد صرح الدولة الموحدة.

* * *

إسلام لكل العصور
بين الإنصاف والجحود

جاء الدين الإسلامى كختام لرسالات السماء، فكان ولابد أن يكون جامعا للعقائد الإلهية مصححا للتصورات المغلوطة عن الإله الواحد الأحد، كاشفا عن أمثل الطرق لعبادة الله، وبما يليق بجلاله وكماله وبأن الوجود كله يدين له بالألوهية، فلا رب إلا الله ولا معبود سواه، وبأن الطريق إلى الهداية يكون باتباع نور الله الذى نزل به القرآن مصدقا لما بين يديه من كتب السماء صحف إبراهيم وزبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم جميعا الصلاة والسلام.

خاطب الإسلام الإنسان فى جميع الأرض للالتزام بالحق والرشاد، ليصحح المسالك الخاطئة وليطرح الأباطيل والأساطير التى طالما أضلت الناس وحجبتهم عن الله رب العالمين، فأيقظ عقله وضميره، وأقام عليه الحجة بأنه مالك الملك الحقيق بالألوهية، منبع الأنبياء، وصاحب الكتب المقدسة، وأن البشر كلهم عباده لا تفرقة بين أحد وآخر، ولا تحكم ولا استعباد من بشر على بشر، وهكذا أرسى الإسلام للإنسان الحرية فى أن يتفكر فى الأمر ويتدبر البلاغ الإلهى، ثم يختار بعقله الواعى المتبصر طريقه الذى إذا تخلص من الهوى وصدع للفطرة المغروسة فيه، وعقل سر وجوده ومكنون نفسه وضميره، وتأمل فى الكون حوله وما أبدع الله فيه من بحار ووديان، وشموس وأقمار، ونجوم

وأفلاك، وليل ونهار، وسماوات وأرضين، وما أنعم الله به على الناس من مخلوقات نراها أو تخفى عنا، فإنه حتما سيدرك أن كل ما فى الوجود، هو نتاج العظمة الإلهية، ومظهر القدرة الربانية: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة النمل: الآية ٨٨].

متى كان ذلك، فقد أرشد القرآن إلى وحدة الرسالات الإلهية، وأبان عن مصدرها، وكفل كل السبل التى ترشد الإنسان إلى الاعتصام بالحق، واختيار ما يحقق سعادته فى العاجل والآجل وأنه إذا تفكر فى نفسه التى بين جنبيه، وفى الآيات الكونية من حوله ومظاهر الخلق والإعجاز وأعمل عقله، فإنه حتما سيختار طريق الإيمان بالله لقيام الأدلة المبثوثة فى الوجود على طلاقة القدرة الإلهية، ولأن الإنسان هو الكائن الوحيد المسخر له المخلوقات جميعا، ويحمل مفاتيح إعمار الكون، واكتشاف أسرار الصنعة الإلهية، وإدراك دلائل إعجاز الخالق، فإن واجبه على قدر الأمانة والمهمة التى خصه الله بها دون سائر المخلوقات. وسيرا على النسق الإلهى فى الدعوة إلى الرشد فى الحياة، والعمران والترقى فيها، فإن القرآن نبهه إلى طرح أسباب الخلاف والصراع والتوحد حول أصول رسالات الله، والإيمان بالدين الذى جمع الأديان قاطبة والالتقاء على كلمة سواء وهى خطة الرشد التى دعت إليها الرسالات جميعا وأعلنها الأنبياء إلى أقوامهم وأممهم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: الآية ٦١].

لكن الغريب هو انقلاب إنسان العصر الحديث على طريق الرشاد والهداية، وسلوك مسلك الغواية والضلال، وارتداده عن داعى الحق

إلى أقصى أنواع الجاهلية ضلالا وإلحادا، ومحاربة لدين الله فى السر والعلن، واختصاص الإسلام بالجحود ونكران جوهره الإيمانى، وقيمه الإنسانية ووصفها بالتخلف والرجعية والقهر والعنف واللامعقول، حتى أحس هؤلاء الذين عبدوا المادة، وجمعوا المال، وتملكهم الغرور بسبب اكتشافهم لأسرار الكون، أنهم سادته، وأنه لا فضل إلا للعقل، فألهوا العقل والمال فى وثنية جديدة، وصاروا يرددون أنهم لا حاجة بهم إلى الدين، فهو مخدر الشعوب، وأسير الغيبيات، وتعلق بالروحانيات، وكبت للنزوات والشهوات، ومضاد للطبيعة البشرية التى سيطر عليها الشح والهوى والرأى الجامح الذى لا تقف أهواؤه الطائشة عند حد، فقد صدق عليه قول الحق: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الجاثية الآية ٢٣].

وفى وسط هذه الأجواء التى تعلن الحرب على الدين، كان الإسلام هو النموذج والمقصود والمستهدف، على أساس من كونه الملاذ الأخير والحصن الصامد لدعاوى الإلحاد واللادينية التى تحمل لواءها المدنية الغربية بما تملكه من إمكانيات علمية وتكنولوجية بلغت المنتهى قوة وفتكا، ونسيت أو تناست القدرة الربانية فى الإيجاد والعدم.

وها هى الحرب تشتعل أوارها بين الغرب والشرق الإسلامى، بهدف تركيع الشرق الإسلامى، وإسكات صوت الإسلام إلى الأبد، وإعلان أممه وشعوبه الاستسلام والخضوع لمدنيته الغالبة وآلته الجبارة، فهو يرى فى الإسلام الخطر الأيدولوجى ويظن أنه فى جهاد دائم ضده لكراهية

دفينة فيه لذلك، فهو يصوب أسـلحته الفكرية والعلمية والعسكرية إلى الشعوب المسلمة التى بلغ بها الهوان والضعف مبلغه.

ولولا بقية من إيمان بالله، والتفاف حول دين الله، والاعتصام بالقرآن والرسول، والمشيئة الإلهية لما أبقى الغرب على هذا الدين، لأن أتباعه المسـلمين تمسكوا بالشكل والطقوس، ولم يترجموا حقائقه ومصادر قوته إلى واقع معيش، فقد تخلوا عن جوهر الإيمان من العمل المتقن، والعلم النافع، والعقل البصير بسـنن الكون ونواميس التقدم، فكان ما كان من هذه المعضلة التى أفرزت مسـلمين بلا إسلام كامل وحقيقى، فقد غيبوا جوهره، واحتفظوا برسمه، وعطلوا مصادر قوته، وغير المسلمين، عقلوا النواميس والسـنن بالعلم والعمـل، وانفصلوا عن الدين وأرادوا اقتلاعه، وشهروا أسلحتهم لمهاجمته، لأنهم يتصورون أن فى نهضة الإسلام زوال قوتهم ونهاية حضارتهم.

وليس الإسلام على هذه الشاكلة، فهو دين يدعو إلى المدنية والحضارة المؤسسـة على الإيمان، أقام صرح حضارته على العلم واعتبره السـبيل لرفعـة الأمـة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [سـورة المجادلـة الآية ١١]. وعلـى العمل، وهو وسـيلة الارتقاء إلى الدرجة العليـا: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سـورة الأحقاف: الآية ١٩]. فالمسلك الذى تبناه الغرب لبعث نهضته بالعلم والعمل يوافق منهج الإسـلام بحسبانه أنه من الفرائض فيه، لكن ينقص العلم والعمل أن يكون منبعه الإيمان بالله تعالى خالق كل شىء. بينما اكتفى الشـرق المسلم بالإيمان الشـكلى وانهزم فى مجال تحصيل

العلم والعمل، فأنتج هذا الصراع العالمى، مما يتوجب معه أن يستكمل كل طرف عوامل النقصان لديه، لإمكان التعايش فى سلام وأمان، فهل يستجيب الطرفان لداعى الحق الذى يطلبه الإسلام؟!

* * *